

أدبنا الحديث ما له وما عليه

طه حسين

أدبنا الحديث ما له وما عليه

أدبنا الحديث ما له وما عليه

تأليف
طه حسين

هنـــداوي

أدبنا الحديث ما له وما عليه

طه حسين

رقم إيداع ٤٥٩٧ / ٢٠١٤
تدمك: ٤ ٧٠١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول[1]

أيها السادة

سيكون حديثي في هذه السلسلة عن أدبنا الحديث، ما له وما عليه، وهذا الموضوع في ظاهره يسيرٌ جدًّا، ولكنه كغيره من موضوعات تاريخ الأدب عسير في حقيقة الأمر؛ فتاريخ الأدب ليس من السهولة بحيث يسرد، وإنما هو في حاجةٍ إلى كثيرٍ من البحث وكثير من الاستقصاء ثم بعد ذلك إلى كثيرٍ من الروية والتفكير، وسأحاول ما استطعت أن يكون الحديث يسيرًا قريبًا لا تكلف فيه ولا عناء للسامعين.

وقد أظلنا هذا القرن الذي نعيش فيه وفي مصر أصوات أدبية قد ارتفعت بفنونٍ مختلفة من الأدب، فيها كثيرٌ جدًّا من الروعة، وفيها كثيرٌ جدًّا من الحق، وفيها كثيرٌ جدًّا من الإصلاح. وهذه الأصوات هي التي بلغت أسماعنا حينما كنا نخرج من طور الصبا وندخل في طور الشباب.

في أول هذا القرن كان هناك صوت البارودي لم يخفت بعد، وكان هناك صوت حافظ وصوت شوقي في الشعر، وكان هناك صوت الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول — رحمهم الله. كانت هذه الأصوات وأصوات أخرى غيرها، تصل إلى أسماعنا وإلى عقولنا فتتنبهنا، تنبهنا إلى أشياءَ كثيرة بعضها لم نكن نقدره، ولا نحسب له حسابًا قبل أن نسمع هذه الأصوات؛ فالإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه محمد عبده، والإصلاح الاجتماعي

[1] محاضرات ألقاها الدكتور طه حسين من إذاعة القاهرة ولم يسبق نشرها من قبل.

الذي كان يدعو إليه قاسم أمين، والإصلاح الاجتماعي والعقلي الذي كان يتحدث فيه إلينا أحمد لطفي السيد، كل هذا كان شيئًا غريبًا بالقياس إلينا نحن الذين لم نكن قد بلغنا أو قد تقدمنا في شبابنا بعد.

وكان بعض هذه الأصوات يصور لنا أشياء تأتينا من أعماق تاريخنا العربي الخالص كصوت محمد عبده، الذي كان يتحدث عن الدين، ويفسر القرآن، ويدرس في الأزهر كتبًا قديمة في البلاغة وفي البيان وفي المعاني؛ فهذه كلها كانت أشياء تأتي من أعماق تاريخنا العربي الديني والأدبي جميعًا، وكان صوت قاسم أمين يأتينا مصورًا لنا أشياء عبرت إلينا البحر، وجاءتنا من أعماق البلاد الغربية؛ فأحاديثه عن تحرير المرأة وعن تعليمها — على أنه من الأشياء التي عرفها العرب وعرفها المسلمون من قبل — ما كان قاسم أمين ليتحدث بها لو لم يكن قد تخرج في إحدى الجامعات الفرنسية، ورأى الحياة الفرنسية وعرف حقائقها وتعمق بعض نواحيها، وأحاديث الجلاء التي كان يدعو إليها مصطفى كامل، وأحاديث الدستور والاستقلال الخالص الذي لا يشوبه الخضوع للعثمانيين، هذا الاستقلال الذي كان يدعو إليه أحمد لطفي السيد؛ كل هذا كان ينبهنا ويشعرنا بأن الحياة التي نستقبلها فيها كثير من الأمل، وتحتاج إلى كثيرٍ من العمل لتحقيق هذه الآمال التي كانت تصورها أحاديث هؤلاء السادة جميعًا، وكل هؤلاء السادة كانوا قد بلغوا الشباب، وتقدموا فيه قبل أن يبدأ هذا القرن، أدركناهم نحن وهم رجال دعاة إلى دعوة الإصلاح على اختلاف فروعه؛ فليس غريبًا أن يكون هؤلاء هم أساتذة الجيل الذي بلغ أواخر الصبا وأوائل الشباب في مطلع هذا القرن، وليس غريبًا أن تكون الدعوات التي كانوا يدعونها ويحرصون عليها، ليس غريبًا أن تكون هذه الدعوات قد كونت خاصة نفوس فتيان هذا الجيل، وكونتها تكوينًا حيًّا قويًّا، يستطيع أن يقاوم أولًا وأن يقهر آخر الأمر، ما كان هؤلاء الفتيان قد ورثوه عن أسرهم وعن بيئاتهم من هذه المحافظة القديمة، التي لم تكن تلائم ما كان هؤلاء الأساتذة يدعون إليه من النهضة في هذا العصر الحديث.

وإذا ذكرنا أن كثيرًا منا كانوا يتأثرون في حياتهم الدراسية إما بالأزهر الشريف وإما بالمدارس التي كان يسيطر الإنجليز عليها، عرفنا أن هذه الأصوات إنما كانت تدعو إلى الحرية، وتدعو إلى الحرية، لا إلى الحرية السياسية وحدها، ولكن إلى الحرية بمعناها الواسع العميق؛ إلى تحرر النفس الإنسانية من كل تلك الأثقال التي كانت تلصقها بالقديم وتمنعها من أن تمضي إلى الأمام.

فلا غرابة في أن ينشأ من تلاميذ ذلك الجيل، الذي نشأ في القرن الماضي ونشر دعوته في أواخر ذلك القرن وفي أوائل هذا القرن، لا غرابة في أن ينشأ جيلٌ جديد يدعو إلى دعوةٍ

تلقاها من هؤلاء الناس، ثم يزيد على ما تلقاه من هؤلاء السادة ما يكسبه هو بتجاربه الجديدة وبما يعرض له من الأحداث، وبما يتاح له من أنواع الدرس والبحث والاطلاع.

وكذلك نشأ في أول هذا القرن جيل خاص كان ينظر إلى تلك الأصوات التي كانت تأتيه من القرن الماضي نظرتين مختلفتين: ينظر إلى أصوات هؤلاء السادة الذين سميتهم إلى أشباه لهم نظرة فيها كثير من الإعجاب، وهي نظرة التلميذ المخلص لأستاذه البار، وكان ينظر في شيءٍ لا أقول من الإهمال أو الاستهانة، ولكن أقول في شيءٍ من النقد؛ إلى أصواتٍ أخرى لم تكن قد جدَّدت شيئًا، ولم تكن تدعو إلى شيءٍ ذي بال، وإنما كانت تحتفظ بالتراث القديم؛ لا بالتراث القديم الحي الذي كنا نحبه وتهفو إليه نفوسنا، وإنما بهذا التراث القديم الجديد الذي كنا نراه سمجًا باليًا أشد السماجة وأشنع البلى؛ وهو تاريخ العصر العثماني، وما كان في هذا التاريخ من ألوان الضعف والخمول والانحطاط.

لا غرابة إذن في أن نكون قد نشأنا بين هاتين العاطفتين أو بين هذين النوعين من الشعور؛ شعور السخط على ماضٍ قريب، والحب لماضٍ قديم من جهةٍ أخرى، وشعور التطلع لمستقبل جديد كنا نتوق إليه ونطمع فيه ونود لو نستزيد العمل لتحقيقه ما استطعنا إلى الاستزادة سبيلًا.

الفصل الثاني

سيداتي سادتي

كانت نهضتنا الحديثة في القرن التاسع عشر تمتاز بخصلتين أساسيتين: هما خضوعها لتيارين، يأتي أحدهما من أعماق التاريخ الإسلامي العربي منذ ظهور الإسلام إلى القرن التاسع عشر، ويأتي الآخر من وراء البحار، من حيث توجد البلاد الأوروبية التي تقدَّمت وسبقتنا إلى الرقي وازدهرت فيها العلوم والآداب. كانت مصر تتلقى هذين التيارين ويتأثر بهما القلب المصري، والعقل المصري، والمزاج المصري أيضًا، أما التيار القديم؛ فقد أخذ يصل إلى المصريين من هذه الكتب القديمة التي كانت نائمة منذ عصورٍ بعيدة في المساجد ومكتباتها، والتي أخذت تعرف الحياة وترى النور شيئًا فشيئًا بفضل المطبعة، والتي جعلت تدخل على الناس بيوتهم وتستقر فيها وتغري الناس بالنظر في صحفها وبالقراءة، وتحبب الناس إلى هذه القراءة وإلى هذه المعاني والألفاظ التي كانت مسطورة مسجلة في صفحات هذه الكتب، وأما التيار الآخر فقد كان يأتيهم من الغرب، يأتيهم أولًا مع الذين أرسلتهم مصر إلى البلاد الغربية، فدرسوا هناك وعادوا بعلمهم ينشرونه بيننا، ويأتيهم من الكتب التي كان هؤلاء الذين عادوا من الغرب يترجمونها إلى اللغة العربية، ويأتيهم بعد ذلك من جماعةٍ من الأوروبيين كانت مصر تدعوهم؛ ليعلِّموا فيما أنشأت من مدارس على النظام الحديث، وكذلك التقى التيَّار العربي القديم بالتيار الغربي الحديث على نحو ما التقى التيار العربي الجاهلي والإسلامي بالثقافة اليونانية والفارسية والهندية أيام العباسيين.

وكما أن التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية أيام العباسيين قد أنشأ حضارة قوية مزدهرة، ونشر العلم في أقطار الأرض، ونشره بنوعٍ خاص في البلاد الإسلامية، ثم

في بلاد أخرى هي بالضبط بلاد الغرب؛ فكذلك أثَّر التقاء التيَّارين، تيار القديم العربي والتيار الحديث الغربي في هذا العصر الحديث بمصر وبسوريا، أثر في القلوب والعقول والأذواق وجعلنا نحس أن أدبًا جديدًا يوشك أن يظهر.

وقد أخذ هذا الأدب الجديد يظهر في أواسط القرن التاسع عشر، وبنوعٍ خاص في أواخر القرن التاسع عشر؛ فظهر شعراء وظهر كُتاب تأثروا بهذين التيارين تأثرًا يختلف قوةً وضعفًا باختلاف ظروفهم وبيئاتهم وما أتيح لهم من الفرص، ووجد عندنا شعراء استطاعوا أن يمنحوا مصر ما لم يُتَحْ لها في عصورها الإسلامية كلها، استطاعوا أن يتيحوا لمصر تفوقًا في الشعر العربي، مع أن التفوق في الشعر العربي لم يتح لمصر في العصور الإسلامية من قبل، كانت مصر تتفوق في العلم وتتفوق في دراسات الأدب والتاريخ، وتتفوق في الحضارة، ولكنها لم تستطع قط أن تتفوق على العراق والشام في الشعر العربي، إلا في هذا العصر الحديث، عندما ظهر هؤلاء الشعراء الممتازون في أواسط القرن الماضي وفي أواخره، وأوائل هذا القرن. ظهرت هذه المدرسة الخاصة «مدرسة محمود سامي البارودي»، وتلاميذ هذه المدرسة شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وغير هؤلاء من الذين أخذوا ينشئون الشعر على نظام هذه المدرسة، وأخص مزاياها تأثُّرها بهذين التيَّارين، كان بعض أعضائها يتأثر بالتيار العربي أكثر مما يتأثر بالتيار الأجنبي، وكان بعضهم يشتد تأثره بالتيار الغربي، ولكنه لا يستطيع أن يجاريه مجاراة صحيحة؛ لأنه لم يذقه ولم يخلطه بنفسه وقلبه.

مهما يكن من شيءٍ فقد امتاز أدبنا في آخر القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن، امتاز بتفوقنا في الشعر، ثم لم تمض أعوامٌ كثيرة حتى امتاز بتفوقنا في النثر أيضًا، فابتكرنا فنونًا لم يعرفها العرب من قبل: ابتكرنا المقالات، وابتكرنا القصص، وابتكرنا التمثيل، وأكثرنا من الترجمة، أكثر مما ترجم القدماء من اللغات القديمة، وبهذه الطريقة استطاعت مصر أن توجد أدبًا جديدًا، ولم تستطع أمة عربية أخرى أن تضارعها في هذه النهضة الأدبية الممتازة، واستطاعت مصر أن تكون مُعلمة للعالم العربي بفضل هذه النهضة، ثم استطاعت أن تمد بعض البلاد الغربية بشيءٍ قليل من آثارها، نرجو أن يقوى وأن ينمو وأن يزدهر مع اتصال الزمن، ومع العناية الشديدة بهذه النهضة؛ حتى لا تذبل، وحتى لا تذوي، وحتى لا يدركها شيء من خمول.

هذا الأدب الحديث الذي أنشأناه والذي تختلف فنونه عما ألَّف القدماء في كثيرٍ من الأحيان، لم يكن بعيدًا عن الأدب العربي القديم في واقعيته؛ فأدباؤنا على اختلافهم لم

يتكلفوا شيئًا غير حياتهم الواقعة، يصورونها كما يحسونها، ويصورونها كما ينبغي أن يحسها الناس، وكما ينبغي أن يتأثر بها الناس؛ ليصلحوها ويحسنوها ويزيدوها رقيًّا إلى رقي وازدهارًا إلى ازدهار.

من أجل ذلك أخشى أن أقول: إن هذه النهضة تتعرض في هذه الأيام لشيءٍ من الضعف ولشيءٍ من الفساد يأتي من أن هناك إهمالًا ظاهرًا للتيَّار العربي القديم؛ إهمالًا يؤلم كل حريص على النهضة المصرية والثقافة المصرية حقًّا؛ فما أكثر الذين يزعمون لأنفسهم الأدب ولا يقرءون كتابًا واحدًا من الكتب القديمة ولا ديوانًا واحدًا من الدواوين القديمة! وما أكثر الذين يزعمون أنفسهم كتابًا، ويجهلون حتى بسائط اللغة العربية وأولياتها، ويزعمون أنهم يستطيعون أن يؤدُّوا أغراضهم بهذه اللهجات الدارجة التي يتحدثها الناس في الشوارع وفي حياتهم اليومية، كأن الأدب قد ضعف وذبل، وفسد حتى أصبح لا فرق بينه وبين لغة الباعة المتجولين.

أؤكد لكم أيها السادة أن هذه ظاهرة خطيرة حقًّا في حياة نهضتنا الأدبية والعقلية كلها، وهي كارثة إذا لم نتداركها، أوشكت أن تجر علينا أخطارًا جسامًا، فالذين يحدثون الناس أنهم الأدباء والكتاب لا يكتفون بالإعراض عن الآداب العربية القديمة والكتب العربية القديمة وحدها حتى في الآداب الحديثة الأوروبية، وليسوا هم من الشرق وليسوا هم من الغرب، ولكنهم شيء بين ذلك، لا أدري كيف يصوَّر، ولا أعرف كيف يكون!

يجب أن تلتفت وزارة التربية والتعليم، وأن يلتفت القائمون بالأمر على الثقافة في مصر، يجب أن يلتفت هؤلاء جميعًا إلى أن الأدب العربي معرَّض في هذه الأيام لخطرٍ عظيم، مصدره الجهل باللغة العربية، ومصدره الإهمال للأدب القديم، وقلة القراءة في القديم وفي الجديد معًا.

الفصل الثالث

سيداتي سادتي

في تلك الأيام التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الثورة المصرية، ظهرت ألوان من الحرية لم يكن المصريون، بل لم تكن الأمة العربية، تعرفها من قبل إلا في تلك الأيام القديمة التي ازدهرت فيها الحياة الإسلامية أيام الأمويين والعباسيين …

وكان أسبق الناس إلى أخذ حريتهم غلابًا هم الكتاب والأدباء بوجهٍ عام. هؤلاء الكتاب والأدباء لم يحتاجوا في تلك الأيام إلى استئذان السلطان ليتكلموا بما في نفوسهم، ولم يحتاجوا إلى استئذانه ليقولوا ما تنتجه عقولهم وقلوبهم وما كان يلائم أذواقهم، وإنما أطلقوا ألسنتهم بالقول وأطلقوا أقلامهم في الكتابة، فنشأت أحاديث في الصحف لم يكن الناس يألفونها قبل هذا العهد، وإن كانت هذه الأحاديث تمس الأدب وتمس أشياء أخرى غير الأدب، تتصل بكل ما يكوِّن الحياة العقلية، وكان الأدباء يطرقون هذه الموضوعات في حرية واسعة توشك أن تكون مطلقة، ثم كانوا يطرقون الموضوعات السياسية لا يحسبون حسابًا لشيءٍ، ولا يخافون أن يتعرضوا للمحاكمات أو التحقيقات التي كانوا ربما قدموا إليها بين حينٍ وحين، كان الأدباء أشد الناس إيمانًا بحريتهم، وأسبقهم إلى الانتفاع بهذه الحرية واصطناعها في إحياء الشعور وفي إحياء العقل، وفي تنبيه الذوق وفي تزكية القلوب.

وفي تلك الأيام أثيرت مسائل أدبية كان الذين سبقوا في أواخر القرن الماضي، وفي أوائل القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن قد أحسوها وتأثروا بها، فذهبوا في إنشائهم للشعر والنثر مذهبًا جديدًا، ولكنهم لم يتعرضوا لهذه المسائل بمناقشةٍ أو جدال، وإنما تأثرت بها عقولهم وأذواقهم، وكتبوا متأثرين بها دون أن يحققوا البحث في هذه المسائل.

أثيرت مسألة القديم والجديد في الأدب، وما يلائم العصر الحديث من ألوان الإنشاء الأدبي، وثارت حول هذه المشكلة خصومات لم تكد تنقطع، خصومات عنيفة أشد العنف، مع أن أنصار الجديد قد بينوا لخصومهم أن فكرة القديم والجديد في الأدب ليست مبتدعة، وليست مستحدثة، وإنما عرفها العرب القدماء؛ فكان الأدب الأموي تجديدًا بالقياس إلى الأدب الجاهلي، وكان الأدب العباسي تجديدًا، وتجديدًا مسرفًا، بالقياس إلى الأدب الأموي؛ وذلك لاختلاف العصور واختلاف ظروف الحياة، ولأن من شأن هذا كله أن يؤثر في الأدب وأن يلونه ألوانًا جديدة تلائم حياة الناس، وتخالف حياة الذين سبقوهم؛ فلم يعرف العرب أيام الأمويين ولا أيام الجاهليين شاعرًا كبشار أو كأبي نواس، ولم يطرقوا موضوعات كالتي كان الشعراء في القرن الثاني والثالث يطرقونها، ولم يعرفوا الكتابة على النحو الذي كان الكتاب يكتبون عليه في تلك الأيام، أيام الرشيد وأيام المهدي وأيام الخلفاء الذين جاءوا بعد هذين، وكذلك قد كان الأدب يتجدد كلما اختلفت الظروف وكلما اختلفت العصور.

وكان هؤلاء الأدباء يطالبون بأن يتجدد الأدب العربي في هذا العصر الحديث كما كان يتجدد في العصور القديمة، وكانوا يقولون إن الأدب العربي أدب حي، وما دام أدبًا حيًّا فلا ينبغي أن يجمد ولا أن يثبت على حالٍ من الأحوال، وإنما يجب أن ينتقل من طورٍ إلى طور، وأن يتبدل من حياة إلى حياة، كما تتغير الحياة نفسها وكما تتغير الظروف المحيطة بالناس في حياتهم. حدث ذلك عند اتصال المسلمين في العصور القديمة بالثقافات الأجنبية، وجاء أوانه في هذا العصر الحديث، وقد اشتد اتصال المصريين والعرب عامة بالآداب الأجنبية الغربية، التي لم تكن بينها وبين آدابنا العربية قبل القرن التاسع عشر صلة، أي صلة.

ولكن أنصار القديم كانوا يجادلون عن قديمهم جدالًا شديدًا، ويزعمون أن المحدثين لا يعرفون اللغة العربية ولا يحسنون الأدب العربي، وأن هذا هو الذي يدعوهم إلى أن يبتكروا فكرة التجديد، وكان المجددون يبينون إتقانهم للغة العربية وللآداب العربية في عصورها المختلفة، فيكتبون في فنون من الآداب قديمة ما كان الناس يكتبون فيها قبل تلك الأيام.

وكذلك اشتد الجدال بين أنصار القديم وأنصار الجديد في تلك الأعوام التي جاءت في إثر الثورة المصرية، حتى انتصر الجديد آخر الأمر وأصبح أنصار القديم أنفسهم يحاولون أن يجددوا، وإن كانوا ألحوا في التزام أساليب بعد بها العهد ومضى عليها الزمان.

وأكثر من هذا أن قراء الصحف اهتموا بهذه المسائل التي كانت تثار بين الأدباء واشتد اهتمامهم بها، وكان موضوع أحاديثهم عندما يلتقون هذه الخلافات بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وكانوا يختصمون حول الكتاب، أيٍّ الكتاب أثبت في الفن قدمًا وأي الكتاب أبرع في الكتابة قلمًا. كانوا يختصمون حول هذا كله، وكانوا يحرصون على قراءة ما يكتبه الكتاب في الصحف على اختلاف مذاهبهم السياسية، ونشأت عن هذا حياة عقلية لم تقتصر على طبقة بعينها من الأدباء، ولكنها تجاوزتهم إلى قراء الصحف؛ سواء منهم من كان له حظ عظيم من الثقافة، ومن كان على حظٍّ ضئيل منها، ومن لم يكن يحسن من الأمر كله إلا الكتابة والقراءة.

ونشأ في تلك الأيام شيءٌ غريب لم يكن مألوفًا؛ فظهر بعض الشبان الذين لم يكونوا قد تثقفوا وإنما يحسنون أن يكتبوا الحروف وأن يقرءوها، ويشتغلون بفنون مختلفة من ألوان الحياة الخاصة، منهم من يشتغل في الصناعة، ومنهم من يشتغل في التجارة، هؤلاء الشبان أكثروا من قراءة الصحف، فأهمتهم وأثرت في نفوسهم، وإذا هم يأخذون في تمرين أنفسهم على الكتابة، ويأخذون في القراءة والإكثار منها، وإذا هم يتجرءون ذت يوم فيرسلون أحاديثهم إلى الصحف وترضى عنهم الصحف وتنشرها، وكذلك جعل هذا اللون من الحياة الأدبية الجديدة التي أحدثتها الثورة المصرية تلك، جعل هذا اللون يؤثر حتى في جماعة كان أقصى أمرهم أن يصيروا إلى حياةٍ عامية خالصة فجعلت منهم أدباء.

في تلك الأيام ظهر شيء آخر يتصل بحرية الأديب وبحرية الرأي، ظهر في بيئات ما كان ينبغي في العصور الماضية أن يظهر فيها، وهو الاستمساك بحرية الرأي إلى أقصى الحدود، الاستمساك بحرية الرأي والبحث عن حقائق الأشياء، والجهر بما لم يكن الناس يجهرون به من قبل في بعض المسائل التي تمس السياسة والتي تمس الدين.

الفصل الرابع

سيداتي سادتي

برغم الأزمات الكثيرة المختلفة التي كان الأدباء يتعرضون لها في تلك الأيام التي جاءت بعد الثورة المصرية، وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ لم يقف الأمر عند اشتداد أصحاب السلطان من ناحية، وثبوت الأدباء لهم من ناحيةٍ أخرى، ولكن تلك الحياة الحرة التي كان الأدب يحياها أتاحت لكتابنا وشعرائنا أن يبتكروا فنونًا جديدة في الأدب، لم تكن قد ألفت في تاريخ الآداب العربية على طوله واختلاف عصوره.

فهذا شاعرنا أحمد شوقي يثبت على الشعر التقليدي في قصائده التي يعرض فيها للشئون العامة ولشئونه الخاصة، يثبت على هذا الشعر التقليدي، ولكنه يدخل في الشعر فنًّا جديدًا لم تألفه اللغة العربية في تاريخها القديم، ولم يألفه الشعر العربي في تاريخه القديم والحديث؛ وهو فن التمثيل، «وشوقي إذا تعرض للتمثيل صنع صنيع غيره من الأدباء، فعرض للموضوعات التي لا تمس الحياة الحاضرة في تلك الأيام من قريبٍ ولا من بعيد، ولجأ إلى موضوعات يأخذها من حياة العصور القديمة»، وكان تمثيل شوقي يجد في نفوس الجماهير صدى أي صدى، كان الناس يحبون أن يسمعوا له إنشادًا وغناءً وتمثيلًا، وكانوا يهيمون به هيامًا شديدًا، ويعجبون به إعجابًا لا ينقضي، وكان هذا كله يشجع شوقي على أن يمضي في هذا الفن الجديد، الذي أتيح له أن يفتح بابه للشعر العربي؛ فأنشأ قصة مجنون ليلى، وأنشأ قصة أنطوان وكليوباترا، وأنشأ قصة قمبيز، وألوانًا أخرى من القصص التمثيلي أعجب بها المصريون، ثم لم تلبث أن تجاوزت حدود الأرض المصرية، فأعجب بها العالم العربي كله، وفتح شوقي في الشعر أفقًا جديدًا للشعراء الذين يأتون من بعده.

وبينما كان شوقي يطرق هذا الباب الجديد أولًا ويفتحه للشعراء بعد ذلك، كان شباب آخرون يحاولون أن يطرقوا باب فن جديد أُلِف في الغرب منذ العصور البعيدة، ولكنه في الشرق لم يكن مألوفًا، لم يعرفه العرب في تاريخ أدبهم القديم، وأخذوا يعرفونه في العصر الحديث حين كان ينقل إليهم من اللغات الأجنبية؛ نقلًا صحيحًا أحيانًا، ونقلًا متصرفًا فيه — قليلًا أو كثيرًا — أحيانًا أخرى. فكان الناس يترجمون القصص التمثيلي من اللغات الأوروبية، ويلائمون بينها وبين الحياة المصرية أو الحياة الشرقية العربية بوجهٍ عام، ثم يقدمونها للناس على الملاعب، وربما أضافوا إليها ألوانًا من الغناء يدعون بذلك الجماهير إلى الإقبال إليها والاستماع لها.

وقد جعل الشباب المصريون يحسون بأن هذا الفن لا ينبغي أن يظل أجنبيًّا ينقل إلى العربية نقلًا، وإنما يجب أن يتوطن في مصر وأن يصبح عربيًّا خالصًا، وأن يشارك فيه المصريون كغيرهم من الأمم الغربية المختلفة، وكذلك جعل شبابنا ينشئون من عند أنفسهم قصصًا تمثيلية، منهم من يدور في قصصه حول السياسة؛ حول سياسة يخيل إلى الناس أنها بعيدة تقع أحداثها وخطوبها في عصورٍ مضت منذ قرون، كالذي فعله محمد تيمور — رحمه الله — عندما جعل يؤلف بعض قصصه باللغة العامية، وقصة خاصة منها وهي «العشرة الطيبة» أدارها حول أمير تركي غليظ فظ، يستذل رجال القصر ومن حوله من الناس، وجعله مصدرًا للضحك وللضحك الذي لا ينقضي.

وبعض هؤلاء الشباب كان يقصد إلى موضوعاتٍ لا تمس السياسة، وإنما تمس الأدب الخالص، كالذي صنعه صديقنا توفيق الحكيم، عندما أنشأ قصته «أهل الكهف»، وعندما أنشأ قصته «شهرزاد»، ثم عندما أنشأ قَصصه التمثيلي الكبير، وكذلك جعل هذا الفن الجديد الغريب، الذي لم يعرفه العرب من قبل؛ لأنهم لم يتصلوا بالتمثيل اليوناني ولا بالتمثيل الروماني القديم. لم يعرف العرب هذا الفن؛ فلم يحاولوا أن يحاكوه ولا أن يجددوا فيه، كما حاولوا ونجحوا في محاكاة الفنون الأخرى التي عرفوها وجددوا فيها تجديدًا خطيرًا. كان هذا الفن إذن غريبًا بالقياس إلى اللغة العربية، وكان غريبًا عن الوطن العربي؛ فاستطاع شبابنا من الكتاب واستطاع شوقي من الشعراء أن يوطنوه في اللغة العربية، ويجعلوه فنًّا عربيًّا أصيلًا نشأ أول مرة تقليديًّا، ولكنه لم يلبث أن مس الحياة المصرية وصورها تصويرًا دقيقًا قويًّا.

ولم يلبث الشباب أن رأوا فنًّا آخر، يجدونه في اللغات الأوروبية ولا يكادون يعرفونه في اللغة العربية، إلا أن يكون في بعض الآثار الشعبية التي كانت تقص على الشعب هنا

وهناك؛ وهو الأقاصيص القصيرة التي تقرأ في غير مشقة، ويستمتع بها قارئها في غير عناء، ثم لا تستغرق منه وقتًا طويلًا، ولا تطلب إليه أن يفرغ نفسه لها وقتًا طويلًا أيضًا؛ فجعلوا أولًا يترجمون شيئًا من هذه الأقاصيص إلى اللغة العربية وينشرونها في الصحف، ثم لم يلبثوا أن جعلوا ينشئون قصصًا طوالًا وقصصًا قصارًا، مقلدين أول الأمر، ثم مستخلصين شخصيتهم من هذا التقليد آخر الأمر. وكذلك أصبح هذا الفن القصصي، سواء منه القصص الطويل والقصص القصير، أصبح هذا الفن فنًّا عربيًّا خالصًا، وأتيح للمصريين أن ينتجوا في الآداب العربية الحديثة ألوانًا من الفن لم يسبقوا إليها، ولم يعرفها القدماء من العرب. ولم يلبث العرب في الأقطار الأخرى أن حاولوا محاكاة المصريين في هذا الفن، ثم لم نلبث أن رأينا القصة الطويلة والقصيرة فنًّا عربيًّا لا يؤلف في مصر وحدها، ولكنه يشيع في البلاد العربية كلها.

الفصل الخامس

سيداتي وسادتي

ليس الأدب إنشاء فحسب، ولكن الأدب إنشاء ووصف.

وإذا كان أدباؤنا في هذا الجيل قد أتيح لهم نُجْحٌ عظيم، فإنهم يؤخذون بقصورٍ ليس بدٌّ من تسجيله؛ لعلهم أن يتخلصوا منه، وأن ينشطوا وأن يعنوا بأدبهم كما ينبغي لأبناء مصر أن يعنوا بأدبهم العربي.

هؤلاء الشباب أو هذا الجيل الجديد من كتابنا وأدبائنا قد أتيح لهم نجح عظيم؛ لأنهم أضافوا إلى الأدب التقليدي الذي عرفته اللغة العربية في عصورها المختلفة فنًّا له خطره، وله مكانته في الآداب العالمية منذ العهود البعيدة؛ وهو فن القصص. فليس من شكٍّ في أن فن القصص بالمعنى الذي يفهمه الناس في هذه الأيام، لم يكن معروفًا في الآداب العربية القديمة، وهو لم يكن يعرف في الآداب الأجنبية القديمة إلا قليلًا، وهو مع ذلك من أخطر ما أنتجت الآداب الحديثة في الغرب، في أمريكا وفي أوروبا، وكانت لغتنا بعيدة عنه كل البعد؛ لأن آدابنا كانت تقليدية لا تكاد تختلف عن التراث القديم ولا تضيف إليه شيئًا.

في هذا العصر الحديث، منذ انتهت الحرب العالمية الأولى، استطاع الجيل الجديد أن يضيف القصص إلى فنون الأدب العربي، وأن يوطنه ويؤصله، ويجعله فنًّا عربيًّا خالصًا لا تقليد فيه للأوروبيين ولا محاكاة فيه للأمريكيين، وإنما هو أدب عربي مصري صميم. وليس هذا بالشيء القليل؛ فالقصة — كما قلت — من أهم الفنون الأدبية، وقد أتيح لشبابنا أن يضيفها إلى الإنتاج الأدبي العربي، وأتيح له أن يوطنها في هذه البلاد، وكان لمصر ولشبابها السبق في هذا الميدان. كل هذا ليس فيه شك، ولكن هذا القَصص إذا لم تلاحظ فيه خصائص اللغة العربية وخصائص الأدب، وإذا لم يضف إلى دقة ملاحظة

أصحابه، وإلى حسن تأتِّيهم لفنهم، إذا لم يضف إلى هذا ما ينبغي لكل أدبٍ من جمال الصورة وروعة الأسلوب وصحة اللغة؛ سيكون فنًّا من هذه الفنون العامية التي لا يكتب لها البقاء.

ليس بد لشبابنا، ولشبابنا الناشئين بنوع خاص، من أن يلاحظوا هذا كله، ومن أن يعرفوا أن كل كلام يكتب أو يقرأ أو يذاع، إذا لم يتميز بهذه الميزة الرفيعة فليس له خطر.

وأنا أعترف بأني أقسو على هؤلاء الشباب وعلى الأجيال الجديدة، وإنما فيما ألاحظ عليهم من قصورٍ أو تقصير. ولكن هذه القسوة مصدرها الحب لهم، والرفق بهم، والأمل فيهم، ولم يخطئ أبو الطيب حين قال:

فقسا ليزدجروا، ومن يكُ حازمًا فليقسُ أحيانًا على من يرحم

أما الآن، فإني لا أريد أن أقسوا عليهم، وإنما أعتذر عنهم؛ فهم قد قصَروا وهم قد قصَّروا، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملون تبعة هذا القصور والتقصير، وربما كانت تبعة الدول العربية، والدولة المصرية على تعاقب حكوماتها واختلافها، ربما كانت هذه الدول وكانت الدولة المصرية أثقل تبعة، وأعظم مسئولية — كما يقال — من هؤلاء الشباب؛ فكل ما يمكن أن يؤخذ على هؤلاء الشباب هو أنهم لا يحسنون لغتهم، ولا يعرفونها كما ينبغي أن يعرفوها. وإثم هذا إنما يقع على الذين يعلمونهم وعلى المدارس التي يتعلمون فيها، وعلى الحكومات التي تشرف على هذه المدارس، وتضع لها المناهج والبرامج، وتسيطر على توجيهها، وتسيطر على تخريج هؤلاء الشباب.

ولا بد من أن نعترف بأن أخص ما تمتاز به مدارسنا هو أنها تُبغِّض اللغة العربية إلى التلاميذ في سنيهم الأولى، وتبغضها إليهم في أول الشباب حين يكونون في المدارس الثانوية، وما أرى أنها تحببها إليهم حين يبلغون التعليم العالي في الجامعة أو في غيرها من المعاهد؛ وذلك لأن اللغة العربية وآدابها تدرس في هذه الأيام كما كانت تدرس منذ اثني عشر قرنًا؛ لم يتطور تعليمها، والدنيا من حولها قد تطورت وتغيرت تغيرًا تامًّا؛ فالنحو — كما يعلم الآن — هو نفس النحو الذي كان يعلم منذ اثني عشر قرنًا، والأدب — كما يدرس الآن — هو الذي كان يدرس منذ اثني عشر قرنًا، تضاف إليه الآداب التي أنشئت على اختلاف العصور؛ فتزيده ثقلًا إلى ثقل، وجفوة إلى جفوة، وعسرًا إلى عسر.

وليس الأمر مقصورًا على تعليم اللغة، ولكن الكتابة العربية نفسها لم تتطور منذ عرفها الأولون في القرن الثاني للهجرة؛ أي منذ تم تطورها إلى حيث هي الآن في هذا القرن من القرون الإسلامية؛ فالناس يكتبون إلى الآن كما كانوا يكتبون منذ اثني عشر قرنًا، لم يطوروا كتابتهم ولم ييسروها.

وأغرب من هذا أن البلاد العربية تسلك طريق البلاد الأوروبية والأمريكية؛ فتفرض التعليم على أبناء الشعب وبناته جميعًا، ومعنى هذا أنها تجعل التعليم ديمقراطيًّا بعد أن كان أرستقراطيًّا، وتفرضه على الشعب بعد أن كان مباحًا لقلةٍ قليلة جدًّا من الذين يستطيعون أن يفرغوا للتعليم. وإذا جعل التعليم شعبيًّا فلا بد من تسييره وجعله صالحًا قابلًا لأن يكون شعبيًّا بأوسع معاني هذه الكلمة وأشملها؛ فليس لدى الشعوب من الوقت ما تنفقه في تعلم هذه اللغة العسيرة بكتابتها المختزلة ونحوها المعقد ... وإنما نحن نعيش في عصر يحتاج إلى شيءٍ من السرعة، وإلى شيءٍ من العناية بما يُعلَّم الأطفال في مدارسهم، والشباب في مدارسهم وجامعاتهم.

فليس بدٌ من أن تيسر الكتابة العربية؛ بحيث يستطيع الأطفال والشباب وهم يتعلمون أن يقرءوا ليفهموا، لا أن يفهموا قبل أن يقرءوا. وليس بدٌّ من أن ييسَّر النحو؛ بحيث يمكن أن يكون مقبولًا سائغًا ملائمًا للعقل الحديث، كما أن اللغات الأوروبية التي يتعلمها هؤلاء الشباب ميسرة سائغة ملائمة لعقولهم في هذا العصر.

والشيء الذي يألم له كل محب لهذه البلاد العربية، وكل محب للغة العربية وآدابها، وكل حريص على أن تظل هذه اللغة حية قوية؛ هو أن شبابنا يتعلمون اللغات الأجنبية في يسرٍ وسهولة أكثر مما يتعلمون لغتهم في هذا اليسر وهذه السهولة؛ ذلك لأنهم لا يجدون في اللغات الأجنبية هذه المشكلات التي لا يتاح فهمها ولا تصورها في هذا العصر، ولا ينبغي أن تعرض إلا على الذين يتخصصون في درس تاريخ اللغة، ودرس تاريخ آدابها. فأما الذين يتعلمون لمجرد التعليم، ويتعلمون ليعيشوا ولينتجوا في الحياة وليجاروا الحضارة؛ فهؤلاء ينبغي أن يكون تعليمهم سهلًا يسيرًا ملائمًا لتطور العقل الحديث، وملائمًا لما يتعلمونه من اللغات الأجنبية من ناحية، ولما يتعلمونه من ألوان العلم على اختلافها من ناحيةٍ أخرى.

فأما أن يعلَّم ابن القرن العشرين كما كان يعلم ابن القرن الثامن أو التاسع، فهذا هو الذي لا نستطيع أن نفهمه ولا أن نسيغه.

ومعنى هذا كله أن هؤلاء الشباب إذا اضطروا إلى شيءٍ من التقصير أو القصور، فتبعة هذا تقع على مدارسهم، وعلى الذين علموهم، وعلى الحكومات التي تشرف على هذا

التعليم؛ لأنها حين جعلت التعليم عامًّا وفرضته على الشعب كله، لم تلاحظ طاقة الشعب وحاجته، وما ينبغي له من التعليم اليسير السهل في هذا العصر الذي يعيش الناس فيه.

هذا يعفي هؤلاء الشباب من بعض تبعاتهم، ولكنه لا يعفيهم من تبعات أخرى؛ فهم مقصرون في قراءة الأدب العربي، وهم مقصرون في قراءة الآداب الأجنبية. وأكبر الظن أنهم قد يتاح لهم في يومٍ من الأيام أن يخرجوا من هذا الكهف، وأن يخرجوا من هذا الخمود ومن حب السهولة واليسر، ويكلفوا أنفسهم من القراءة والدرس والتثقف أكثر مما كلفوها حتى الآن، ويومئذٍ يستطيعون أن ينتجوا أدبًا عربيًّا جديرًا بهذا الجيل.

الفصل السادس

الأدب الوصفي

سيداتي سادتي

قلت إن الأدب إنشاء ووصف، وقلت إن أجيالنا المعاصرة قد أتيح لها نجحٌ عظيم في أحد هذين النوعين؛ في الأدب الإنشائي؛ فهي قد وطنت فنًّا جديدًا في هذا الأدب وهو فن القصص، وحاولت أن توطن فنًّا آخر جديدًا وهو فن التمثيل، فحالت ظروف بينها وبين ذلك؛ لأنها لم تقصر في الإنتاج ولا في الإنشاء، وإنما قصَّر الذين كان ينبغي أن يمثِّلوا وأن يُعربوا عن هؤلاء الكتاب والمؤلفين.

ولكن هناك فنًّا آخر أو نوعًا آخر من الأدب نقصِّر فيه، وتقصر فيه الأجيال الحديثة بنوعٍ خاص تقصيرًا خطيرًا جدًّا؛ وهو هذا الأدب الذي أسميه أدب الوصف أو الأدب الوصفي.

هذا الأدب الوصفي ليس إنتاجًا خالصًا للأدب الفني بمعناه العام، وإنما هو إنتاج يمس الأدب نفسه؛ فهذا الذي ينقد كتابًا أو يؤرخ لونًا من ألوان الأدب، لا ينتج أدبًا إنشائيًّا، ولكنه يصف الأدب الذي أنتجه أدباء غيره. فإذا درستُ كتابًا من الكتب التي أنتجها هذا المؤلف أو ذاك، وكتبت عنه نقدًا موجزًا أو مفصلًا، فأنا لا أنشئ أدبًا جديدًا، ولكني أصف أدبًا قد أنشأه غيري. إذا وصفته فقد أحمده وقد أعيبه، وقد أسجل ما فيه من محاسن أو أسجل ما فيه من عيوب، وكل هذا وصف للأدب الذي أنتجه الأدباء المنشئون. هذا النوع من الإنتاج الأدبي قصرنا فيه تقصيرًا شديدًا في هذا العصر الأخير،

منذ عشرين سنة أو أقل من عشرين سنة تقريبًا؛ لسببٍ بسيط وهو أن استعدادنا للقراءة قد ضعف، واستعدادنا لقراءة الأدب بمعناه الصحيح قد ضعف أيضًا، فنحن ننفق أوقاتنا في قراءة الأشياء اليسيرة التي لا تكلف جهدًا ولا عناءً، ولا تحتاج إلى روية ولا تفكير. وكثير منا يكادون يعتقدون أن قراءة الصحف على كثرتها تغنيهم عن أي قراءة أخرى، فإذا أتاحوا لأنفسهم قراءةً أكثر من قراءة الصحف، فهم يقرءون هذا القصص اليسير وهذه الكتب الهينة الميسرة التي لا تكلفهم جهدًا ولا جدًّا ولا كدًّا ولا تحملهم مشقة أو عناء، وهم من أجل ذلك يوشكون أن يكونوا سطحيين لا يتعمقون الأشياء ولا يفكرون فيها. وهم من أجل ذلك يقرءون لا ليفيدوا عقولهم، وإنما يقرءون ليستعينوا بالقراءة على قطع الوقت، أو على دعوة النوم إلى الجفون ... وكذلك أصبحت القراءة تسلية بعد أن كانت القراءة تغذية، وأصبحت تسلية عند الكثرة الكثيرة من الشباب.

ربما صُرف الشباب عن القراءة واكتفى بالاستماع إلى ما يحمله الراديو إليه في كل ساعةٍ من ساعات النهار وفي أكثر ساعات الليل، وربما صرف عن هذا كله إلى شهود السينما وما إليها من هذه المناظر التي تعينه على أن يقطع الوقت في شيءٍ من الراحة والتخفف من الأعباء والأثقال، كل هذا تعطيل للقوة العاقلة وللملكة الناقدة وللذوق وللطبع السليم، وكل هذا يحول بين شبابنا المتأدبين وبين هذه القراءة المتعمقة الناقدة الفاحصة التي تحاول أن تتعرف ما في الأدب من خيرٍ وما فيه من شر، وما فيه من جودة وما فيه من رداءة. وتستطيع أن تبصِّر كثرة القراء بما ينبغي أن يقرءوا وبما ينبغي أن يتركوا؛ بما ينبغي أن يقرءوا لأنهم سيجدون فيه هذه الخصلة أو تلك من الخصال التي يحبونها، أو أن يتركوا لأنهم سيجدون فيه هذا العيب أو ذاك من العيوب التي يكرهونها. كل هذه الأشياء جاءت من أننا لا نحب الآن أن نتثقف، ولا أن نتثقف هذه الثقافة الأصيلة العميقة الجادة التي تكلفنا جهدًا وعناءً ومشقةً ومزاولة، وإنما نحن نريد أسهل الأشياء.

يخيل إلينا أننا نستطيع أن نسوس عقولنا كما نسوس أجسامنا، فنحن لا نتكلف المشي إذا أردنا أن ننتقل من مكانٍ إلى مكانٍ بعيد، ونحن لا نتخذ الإبل ولا الحمر ولا البغال لننتقل من مكانٍ إلى مكان، وإنما يُسرت لنا المواصلات ويُسرت لنا الحياة المادية تيسيرًا خطيرًا. فخيل إلى كثيرٍ منا أنه ما دامت الحياة المادية قد يسرت، وما دام كل شيء في هذه الحياة الحديثة إنما يمتاز بالسهولة واليسر؛ فينبغي أن يخضع العقل لهذه المظاهر الحديثة. ولكن العقل شديد الجموح، وهو ثائر دائمًا، وهو مخالف دائمًا لما

يألف الناس. فإذا كانت الحياة المادية ميسرة، فالعقل الجديد بهذا الاسم لا يحب اليسر، وإنما يؤْثر عليه المشقة والجهد والعسر … وصاحب الفن خاصة يفسد فنه إذا آثر فيه اليسر، وآية ذلك أن أيسر الأشياء أن تلتقط الصورة الفوتوغرافية، ولكن أعسر الأشياء أن تصنع الصورة التي يفرغ لها الفنان أيامًا طوالًا وشهورًا طوالًا، وربما احتاجت منه إلى عامٍ أو أكثر من عام. وتستطيعون أن تقولوا ذلك في المثَّال وفي كل صاحب فن بالمعنى الدقيق. فالأديب كذلك ينبغي أن يروض نفسه على الجهد وعلى المشقة في إنشاء الأدب أولًا، وفي وصفه ونقده ثانيًا، وينبغي أن يستقر في نفوس الشباب، كما استقر في نفوس الذين سبقوهم من الشيوخ. وكما هو مستقر في نفوس الشباب المعاصرين لهم في البلاد الأخرى، ينبغي أن يستقر في نفوسهم أن العقل لا يراض كما تراض الآلة، وأن العقل ليس طيعًا ولا مستجيبًا بهذه السهولة، ولكنه عصيٌّ أبيٌّ يحتاج إلى كثيرٍ من الأناة وإلى كثيرٍ من حسن السياسة وإلى كثيرٍ من الجهد والعناء؛ لينفذ إلى أعماق الأشياء، وليفقهها كما ينبغي أن تُفقه، وليؤديَها كما ينبغي أن تُؤدى.

وليس بد لتحقيق الأدب الوصفي والنقد الصحيح في هذه الأيام، من أن يعود شبابنا إلى الدرس، وإلى الدرس الطويل الثقيل الشاق، وإلى القراءة الكثيرة المختلفة المُنوعة …

الفصل السابع

الواقعية في الأدب

سيداتي سادتي

أشرت في الأحاديث الماضية إلى اختلاط الأمر في شئون الأدب كلها على شبابنا الذين يكتبون ويذيعون، ويملَئون الدنيا بما يكتبون وما يذيعون في هذه الأيام، وقلت إن هذا الاختلاط مفسدٌ لرأيهم ولرأي الذين يقرءونهم ويسمعونهم في الأدب؛ فهم يقرءون أشياء هنا وهناك، بعضها قديمٌ وهو قليل أو أقل من القليل، وبعضها حديث وليس بأكثر من القديم. يقرءونها مسرعين ويفهمونها مسرعين ويتأثرون بها مسرعين، ويرتبون عليها أحكامًا أقل ما توصف به أنها أحكام خاطئة؛ فهم مثلًا يظنون أنهم يبتكرون في الأدب العربي المعاصر مذهبًا حديثًا هو مذهب الواقعية، يظنون أنهم إذا اشتقوا ما يكتبون من واقع الحياة اليومية التي يحياها المصريون في هذه الأيام، فقد ابتكروا أدبًا لم يكن مألوفًا من قبلهم، وأضافوا إلى امتيازاتهم الكثيرة التي يزعمونها لأنفسهم في هذه الأيام امتيازًا جديدًا؛ وهو الابتكار في الأدب وفي الأدب العربي بنوعٍ خاص.

والواقع من الأمر أنهم لا يبتكرون شيئًا وأنهم لم يقرءوا الأدب القديم، ولا يكادون يعرفون من أمره شيئًا، وأنهم يأخذون واقعهم أو واقعيتهم من الآداب الأجنبية الحديثة التي لا يقرءونها حق قراءتها ولا يفهمونها حق فهمها، ولا يحكمون عليها ويتأثرون بها كما ينبغي أن يكون الحكم على الأشياء، وكما ينبغي أن يكون التأثر بالأشياء. فأيسر القراءة في الأدب القديم على اختلاف عصوره تبين لهم أن مذهب الواقعية هذا ليس غريبًا

مطلقًا على القدماء من شعرائنا وكتابنا. وليس في هذا شيء من الغرابة؛ فالشعر الذي يصور حياة الناس لا يمكن أن يبتكر هذه الحياة التي يريد تصويرها من عند نفسه، وإنما يأخذها من الناس الذين يحيونها ويأخذها من واقع أمرهم لا من شيءٍ آخر، لا يستنزلها من السماء ولا يستخرجها من الأرض.

والأديب حين يريد أن يغير أمرًا من أمور الناس يصور لهم هذا الأمر الذي يريد أن يغيره على أنه بغيض لا ينبغي أن يمضي على ما هو عليه، ويحبب إليهم شيئًا آخر يناقضه ويدعوهم إلى هذا الشيء، ويبين لهم ما فيه من محاسن وما ينبغي أن يقدموا عليه من أمر؛ لأنه يلائم المصلحة والمنافع ويحقق الغايات والمآرب. والقرآن الكريم نفسه، حين أراد أن يصلح من ينهاهم عما كانوا قد ألفوا من التشاؤم حين كانت تولد لهم البنات، يصور هذا أروع تصوير، وأروع تصوير واقعي ما أظن أن أحدًا يناقش في واقعيته، أو يستطيع أن يصور الواقع كما صور في القرآن: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ صدق الله العظيم.

هذا التصوير، تصوير الرجل الذي كان يسوءه أن تولد له الصبيَّة، فإذا بشر بها اسود وجهه وانعقد لسانه وكظم غيظه واستحى أن يظهر للناس، وأن يظهر لهم ما بشر به وجعل يناقش نفسه، ويراود ضميره ماذا يصنع بهذا الوليد الذي أقبل عليه ولم يكن يريده ولم يكن ينتظره؛ أيبقي عليه ويمسكه في الحياة مهانًا ذليلًا، أم يفرغ منه ويدسه في التراب كما كان بعض الجاهليين يفعلون حين كانوا يئدون بناتهم في التراب ساعة يولدن أو يوم يولدن!

هذا التصوير اشتقه القرآن من حياة العرب الذين كانوا يحيونها، لم يأت به من شيءٍ آخر، وإنما هو صورة صادقة توشك أن تكون صورة فوتوغرافية لهذا الذي يكون من عند تولد له صبيَّة وهو فيها غير راغب وهو منها نافر.

وهذا الشاعر القديم الذي يرى امرأته تهين ابنه؛ لأنه لم يكن ابنًا لها وإنما كانت ضرة لأمه؛ فيغيظه منها ذلك وينذرها ويخيرها بين أن تحسن العناية بابنه والرعاية له، وبين أن تفارق داره وتذهب إلى أبعد ما يكون منه. عندما يريد أن ينبئها بهذا كله وأن ينبئ الناس بألمه من هذا كله، يشتق من هذا الواقع شعرًا نقرؤه، فلا نرى فيه انصرافًا عن واقع الحياة ولا التماسًا لأشياء لم تكن ولا بحثًا عن غايته في أجواز الجو أو في باطن الأرض، وإنما يبحث عما يريد أن يقول في بيته هو لا في مكانٍ آخر:

أرادت عرارًا بالهوان، ومن يرد   عرارًا لعمري بالهوان فقد ظلم
فإن كنت مني أو تريدين عشرتي   فكوني له كالسمن رُتِّب والأدم
وإلا فبِيني مثلما بانَ ظاعن   تيمَّم قصدًا ليس في سيره أمم
وإن عرارًا إن يكن ذا خليقة   تعافينها منه، فما أملِك الشيَم
وإن عرارًا إن يكن غير واضح   فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

يقول لها إن تكن أخلاق عرار لا ترضيك فإني لا أمك تغيير أخلاقه، وإن يكن سواد عرار لا يعجبك، فإن سواده يعجبني وهيئته تروقني وأنا أحب الغلام الأسود الضخم ذا الهيئة الرائعة.

ويقول الرواة: إن عرارًا هذا أقبل ذات يوم على عبد الملك يبشره بانتصار جيشه في وقعةٍ من وقعات المسلمين. فلما أدى إليه البشارة أحسن أداء، ذكر الخليفة هذه الأبيات، فأنشدها وهو لا يدري من هذا الذي كان يخاطبه، فقال له الفتى: «والله يا أمير المؤمنين ما قيل هذا الشعر إلا فيَّ.» فعرفه الخليفة.

هذا الشعر، كتلك الآيات الكريمة التي تلوتها عليكم آنفًا، إن صور شيئًا فإنما يصور واقع الحياة التي كان العرب يحيونها، واقع الحياة البسيطة الساذجة التي لم يكن فيها تكلف ولا تصنع، ترون صورتها لا تكلف فيها ولا تصنع، وإنما هي صورة مطابقة للأصل لم تُؤد في لفظٍ مهلهل، وإنما أُديت باللغة التي تلائم الشعر من جهة والتي تلائم الأدب، الكلام الذي يُراد أن يسمعه الناس وأن يقرءوه ويتناقلوه ويؤثروه ويحفظوه.

وكان القدماء من شعرائنا واقعيين في الغزل نفسه إلى أبعد ما يمكن أن تكون الواقعية، حتى إن من شعرهم في الغزل والهجاء ما نستحي الآن أن نقرأه أو أن نعرضه على شبابنا حين نعلمهم الأدب القديم؛ ذلك لأنه كان من الواقعية بحيث لم يكونوا يتركون شيئًا من الأشياء إلا صوروه، وصوروه كما هو، وسموه باسمه، ولم ينتحلوا له أوصافًا أو أسماء بعيدة عنه.

هذا الشاعر الذي يريد أن يتحدث عن صاحبته حين رآها ورأته، واختلس قبلتين في سرعة مخافة أن يشعر بهما شاعر أو يتنبه إليهما رقيب، «لا يزيد على أن يؤدي هذه الصورة في دقةٍ كما لو كنا نراها»:

قبلت فاها على خوفٍ مخالسةً كقابس النار لم يشعر من العجل
غضي جفونك عني وانظري أممًا فإنما افتضح العُشاق بالمقل

وأبو نواس حين أراد أن يذكر أيضًا مثل هذه الصورة لم يزد على أن صورها كما صورها ذلك الشاعر البدوي القديم. فواقعية الشعر وواقعية الأدب ليست شيئًا جديدًا، وليست بدعًا من الأدب العربي القديم في جاهليته وفي إسلامه، وفي العصور التي بلغت الحضارة العربية فيها أقصى ما كان يمكن أن تبلغ في تلك الأيام من الرقي.

وتلاحظون أن هذه الواقعية لم تضعف من جمال الأدب، ولم تغض من شأنه ولم تضطر الكُتاب والشعراء إلى أن يعرضوا عن لغتهم إلى لغة الشوارع؛ لأنهم استطاعوا أن يؤدوا هذه الحياة الواقعية كما هي في لغة تلائم الشعر والأدب حقًّا.

الفصل الثامن

الواقعية في الأدب أيضًا

أعود بكم إلى حديث الواقعية هذا الذي لم أتمه في الحديث الماضي، فقد بينت أن مذهب الواقعية الذي يمعن شبابنا الأدباء في التحدث عنه والمفاخرة به، ويظنون أنهم ابتكروه من عند أنفسهم في هذا العصر الحديث؛ ليس جديدًا وليس مبتكرًا في هذه الأيام، ولكنه قديم بمقدار ما يكون الأدب العربي نفسه قديمًا، قديم في الشعر وقديم في النثر، وهو على ذلك لم يفسد الشعر القديم ولم يفسد النثر القديم بمقدار ما أفسد نثرنا الحديث في هذه الأيام، وهو لم يفسد الأدب القديم؛ لأن القدماء لم يكونوا يجهلون ما يعملون، وإنما كانوا يؤدون خواطرهم ويعربون عن ذات أنفسهم بلغةٍ يعرفونها حق معرفتها ... ولم يكونوا يتكلفون ولا يتصنعون، وإنما كانوا يرسلون نفوسهم على سجيتها، ويُعملون مقدرتهم الفنية في تصوير ما يريدون، ويؤدون هذا الذي يريدون أن يصوروه أداءً ملائمًا لما ينبغي للأدب من الجمال والارتفاع في صوره ومعانيه وألفاظه.

وأغرب من هذا أن هذه الواقعية ليست مقصورة على الأدب العربي القديم أو الحديث، ولكنها شيءٌ شائع في الآداب المختلفة؛ فالآداب القديمة كلها عرفت هذه الواقعية، ونجدها في الآداب اليونانية القديمة في شعر القصاص وفي شعر الغنائيين وفي شعر الشعراء التمثيليين، كما نجدها في العربية رائعة بارعةً تبهر السامعين والقارئين على بعد عهدنا بها، نقرؤها الآن فيخيل إلينا أننا نرى، مع ما بيننا وبين قدماء اليونان من آمادٍ بعيدة وقرون طوال، وكذلك الحال بالقياس إلى الشعراء والكتاب من الرومانيين عندما نقرأ الآثار اللاتينية التي حُفظت لنا عنهم في شعرهم، وفي خطبهم وفي رسائلهم وفي

كتبهم؛ نقرؤها فيخيل إلينا أننا نرى ما يصورون، ولا نشك مطلقًا في أنهم إنما يشتقونه من واقع الحياة التي كان الناس يحيونها من حولهم.

وفي الآداب الحديثة نجد هذه الواقعية عند طائفة من الكتاب وعند طائفة من الشعراء، فنعجب بها ونرضى عنها ولا نجد في قراءتها ضيقًا ولا اشمئزازًا ولا نفورًا؛ لأنهم قد أحسنوا الملاءمة بين ما أرادوا تصويره من واقع الحياة، وبين ما ينبغي للأدب من هذا الجمال الذي يملك النفوس ويسحر القلوب، ويسيطر على القارئ والسامع ويضطره اضطرارًا إلى أن يقرأ ممعنًا، مستأنيًا في القراءة، وإلى أن يحفظ من الشعر ما يستطيع، وإلى أن يستعيد مرات قراءة ما يقرؤه من هذه الأبيات التي تصور الحياة الواقعية للناس ...

كذلك تعوَّد القدماء والمحدثون حين أرادوا أن يصوروا واقع الحياة، ولكن شبابنا من الأدباء عندما يريدون أن يصوروا واقع الحياة يخيل إليهم أن عليهم أن يؤدوا هذا الواقع كما هو، كما يجري، لا يغيرون فيه قليلًا ولا كثيرًا، لا يعرفون كيف يصورونه بحيث يرتفعون به شيئًا ما ليملكوا علينا أنفسنا؛ وليضطرنا اضطرارًا إلى أن ننظر فيه وإلى أن نقرأه ونعيد قراءته؛ ذلك أن الحياة الواقعة نراها في كل وقت، نراها ونعيشها ونضيق بما نضيق به منها، ونرضى عما نرضى عنه منها، ولكننا لا نحب حين يتحدث إلينا الكتاب عنها أن يتحدثوا عنها كما هي في الشارع وكما هي في الأندية والمجالس، وإنما نحب أن يؤدوها إلينا تأديةً أرقى مما هي دون أن يُخِلوا بحقائقها، نحب أن تؤدى إلينا في هذه الصورة التي تروعنا — وواقع الحياة في نفسه لا يروع — فإذا رأيت هذا البائع المتجول بما يحمل من فاكهةٍ أو خضر، فليس في هذا شيء يروعك أو يدعوك لتنظر إلى هذا الذي يجول في الشارع بما يحمل من فاكهةٍ أو خضر، ولكن الأديب الحق هو الذي يرى هذا فيتأثر به، فينظر إلى أبعد من المتجول بما يحمل من فاكهة وخضر، ويشتق من هذه الحياة التي يحياها هذا الرجل ومن صورته وهو يسعى منذ تظهر الشمس إلى أن تغرب وبعد أن تغرب، وينظر إلى أشياءٍ كثيرة تحيط به وتحيط بالناس من حوله، ويشتق من ذلك صورة موجزة جميلة رائعة يعرضها علينا، فإذا نحن نرى هذا الشيء الذي ألفناه، والذي نراه كثيرًا وقد نضيق به أحيانًا، فإذا نحن نميل إليه ونضطر إلى الوقوف عنده والتفكير فيه.

وأدباؤنا يخيل إليهم أنهم لا يستطيعون أن يصوروا لنا الواقع، عندما يريدون أن يجروا الحديث والحوار بين شخوصهم في قصصهم وفي أحاديثهم، لا يستطيعون أن

يفعلوا هذا إلا إذا أجروا الحوار كما يتكلم الناس في شوارعهم وفي أعمالهم، بهذه اللغة العامية التي يتكلم بها الناس عادة، يخيل إليهم أن هذا أدنى إلى الصدق، وأن هذا أدنى إلى الواقع الذي يحياه الناس. ولكننا نستطيع أن نعرب عن هذه الحياة الواقعية إعرابًا جليًّا واضحًا لا يغير منه شيئًا وإنما يؤديه كما هو، ومع ذلك يكون إعرابنا عنه بلغةٍ عربية واضحة جلية، لا أريد أن نصطنع فيها ألفاظ أهل البادية من القدماء، ولا الألفاظ التي تحتاج في فهمها إلى البحث في المعاجم على اختلافها، ولكن هذه الألفاظ اليسيرةُ القريبة التي لا مشقة فيها على أحد.

وأنا أتحدث إليكم الآن عن هذا كله وما أظن أنكم تحتاجون وأنتم تسمعونني إلى أن تبحثوا عن كلمة من هذه الكلمات التي أتحدث إليكم بها في معجمٍ من معجمات اللغة القديمة؛ لأني أتحدث إليكم بلغةٍ تفهمونها وتتحدثون بها، وتريدون أن تسمعوا الناس يتحدثون إليكم بها؛ لأنكم تحبون أن تسمعوا هذه اللغة الفصحى، تحبون أن تسمعوها لتخرجوا من هذه الحياة العادية المألوفة التي تحيونها، والتي تضيقون بها في كثيرٍ من الأوقات، والتي تحبون أن تستريحوا منها إلى لغةٍ خير منها وأنقى منها وأرقى منها وأصفى منها، تخيِّل إليكم أنكم تخرجون من أنفسكم ومن عالمكم، وتستعيرون نفوسًا أخرى وتعيشون في عالمٍ آخر، وهذا هو الذي نسميه الاستمتاع بالفن والاستمتاع بالأدب الرفيع.

من أجل هذا كله أتمنى أن يتصور الشباب مهمتهم كما ينبغي أن يتصوروها، وأن يعرفوا أنهم ليسوا مكلفين أن يصوروا لكم حياتكم تصويرًا فوتوغرافيًّا، فحسبكم من هذا ما ترونه في الصحف كل يوم، وإنما ينبغي أن يصوروا هذه الحياة لكم تصويرًا فيه شيء من فن، وفيه شيء من عناية، وفيه شيء من جمال، وأنا أعرف أن هذا كله ليس من اليسير.

الفصل التاسع

مشكلة الإعراب[1]

سادتي

لست مسئولًا عن المحاضرة ولا عن عنوانها؛ فالمحاضرة فرضها عليَّ المجمع فرضًا، وما كان لي أن أخالف عن أمره.

والعنوان فرضه عليَّ زميلنا الأستاذ إبراهيم مصطفى.

وأعترف بأني وقفت من هذا العنوان — غير مرة — موقف الحيرة، وخفت أن يكون مصدر الاضطراب في أفكار الذين يقرءونه.

فكلمة الإعراب كلمة مخيفة جدًّا، وليس منا — وليس من حضراتكم — من لم يخف من هذه الكلمة حين كان تلميذًا في المدرسة الثانوية أو طالبًا في الجامعة.

ويكفي أن نذكر تلك الأسئلة التي كانت تلقى على الطلاب — حين يتقدمون للشهادة الثانوية — وفيها بيت من الشعر معقد، يطلب إلى الطلاب إعرابه، فيَلقى الطلاب في هذا الإعراب عناءً شديدًا؛ يخطئون كثيرًا ويصيبون قليلًا.

[1] بحث ألقاه الدكتور طه حسين في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أول عام ١٩٥٥م.

والغريب أني بحثت عن كلمة الإعراب هذه، بهذا المعنى الذي اصطلح عليه النحويون، والذي عذَّبنا حين كنا في الأزهر، والذي عذبنا حين كنا تلاميذ، وعذب أجيالًا كثيرة من التلاميذ؛ فلم أجد له أصلًا في المعاجم العربية.

وإنما هو اصطلاح من اصطلاحات النحويين، ومن اصطلاحات النحويين المتأخرين منهم خاصة.

ومهما أنسَ فلن أنسى أن أول كلمة ألقيت علينا في الأزهر ونحن طلاب هي إعراب «بسم الله الرحمن الرحيم»، على التسعة الأوجه المعروفة المشهورة: سبعة منها جائزة واثنان ممتنعان في حالتي رفع «الرحمن» أو نصبها.

فالإعراب كما أجده في المعاجم هو: أن يتكلم الإنسان على نحوِ ما كان العرب يتكلمون، فإذا أحسن الإنسان أن يفصح عن ذات نفسه فقد أعرب. وهم يقولون: أعرب الرجل عن ذات نفسه؛ أي إنه تكلم فأبان ما في نفسه من المعاني على الطريقة التي كان العرب ينهجونها حينما يؤدون ما في نفوسهم من المعاني.

وواضح ان هذا العنوان لهذه الكلمة — مشكلة الإعراب — لم يرد به المعنى الذي اصطلح عليه النحويون.

وما كان لمؤتمر المجمع اللغوي أو لمجلسه أن يدعو حضراتكم ليصدع أدمغتكم برفع الفاعل بالضمة — إن كان اسمًا معربًا — وبنائه على السكون مثلًا إن كان اسمًا مبنيًّا، أو بالواو إن كان جمع مذكر سالم أو من الأسماء الخمسة، إلى آخر هذه الأشياء التي نرجو أن يبرئنا الله من عقابيلها يومًا ما. فالذي أراده المجمع إنما هو الإعراب بالمعنى الذي أجده في معاجم اللغة؛ وهو التكلم في إبانة وإفصاح على الطريقة التي كان العرب ينهجونها حينما كانوا يعربون عن ذات نفوسهم.

والأمر ينتهي آخر ما يكون إلى التفكير في هذه الخصومة التي قامت غير مرة بين اللغة العربية الفصحى وبين اللغة العامية على اختلاف أقطارها. ففي غير وقتٍ وفي غير موطنٍ من المواطن شَعَرَ المتكلمون بهذه اللغة العربية بمصاعب لا تحصى، عندما حاولوا أن يتكلموا أو عندما حاولوا أن يعربوا؛ سواء أكان الإعراب عن ذات نفوسهم بالكلام أو بالكتابة.

وجدوا في هذا كله مصاعب لا تحصى، وضاق كثيرٌ منهم بها، وأشفق كثيرٌ منهم من احتمالها ومواجهتها، ففزعوا إلى اللغة العامية التي لا تكلفهم درسًا ولا بحثًا ولا إعرابًا ولا إعجامًا، ولا شيئًا من هذه المشكلات التي يتعرض لها كل من حاول أن يتكلم اللغة العربية الفصحى.

ومن الناس من كتبوا بهذه اللغة العامية مباشرة ولم يحفلوا بالمنكرين ولا بالمعارضين.

ومن الناس من لم يكتف بالإعراب عن ذات نفسه بهذه اللغة، وإنما حاول أن يجادل عنها وأن يناضل، وأن يقيمها مقام اللغة العربية القديمة أو الفصحى، وأن يدعو إلى أن تكون هي لغة الأدب.

وهذه الخصومة تكررت كما قلت في أوقاتٍ كثيرة ومواطن متعددة، وهي الآن تعود جذعة.

ففي مصر وفي غير مصر قوم يدعون إلى العدول عن هذه اللغة وعن مشكلاتها إلى اللغة العامية، التي لا تكلف مشقةً ولا تحمِّل صاحبها عناءً.

والمجمع أنشئ — حينما أنشئ — للمحافظة على اللغة العربية الفصحى، ولتمكين هذه اللغة من أن تلائم العصور المختلفة التي تعيش فيها، ومن أن تلقى الحضارة الحديثة غير هيابة لها ولا مشفقة منها، ولا عاجزة عن إساغتها وإذاعتها بين غير المثقفين وبين أوساط المثقفين فضلًا على المثقفين الممتازين.

ولغتنا — اللغة العربية — قد صادفت من المشكلات مثلما تصادف في هذه الأيام؛ فليس هذا الوقت هو الوقت الأول الذي لقيت فيه اللغة العربية حضارات لم تكن تعرفها وعلومًا لم تكن تخطر للعرب، وإنما عهد العرب بهذا قديم؛ فهم قد عاصروا الحضارة الفارسية واليونانية بُعيد ظهور الإسلام منذ كان الفتح العربي، وهم قد لقوا حضارات أخرى غير الفارسية واليونانية، وهم قد واجهوا هذه الحضارات وواجهوا ما كان فيها من ثقافاتٍ مختلفة، وهم قد استطاعوا أن يسيغوا هذه الثقافات، وأن يسيغوها لأنفسهم، وأن يفرضوا عليها لغتهم بعد ذلك.

فهم قد طوعوا هذه الثقافات للغتهم، وطوعوا لغتهم لهذه الثقافات.

ومن أيسر الأمور أن يرجع أحدنا إلى أي كتاب من الكتب الفلسفية العربية القديمة، ليرى كيف استطاع العرب أن يسيغوا ما كتب عن فلسفة أرسطو وأفلاطون وطب جالينوس، إلى آخر هذه العلوم التي استطاعت اللغة العربية أن تسيغها وأن تطوعها لقواعدها، وأن تطوع لها قواعدها أيضًا.

وإذا كان هذا قد دل على شيء فهو إنما دل على أن اللغة العربية ليست باللغة التي كتب عليها الجمود، وليست باللغة التي كتب عليها أن تقصر على أهل البادية ومن يشبههم من أهل المدن أو القرى العربية القديمة، وإنما هي لغة خلقت لتكون لغة

عالمية، بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها، دون أن تنزل عن أصولها وعن قواعدها وعن خصائصها التي تمتاز بها من سائر اللغات.

وقد رأينا لغات قبل اللغة العربية سادت العالم القديم، ولكنها لم تستطع — في يومٍ من الأيام ولا بحالٍ من الأحوال — أن تسود قلوب الناس ونفوسهم، وأن تصبح لغات شعبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ فاليونان قد غزوا العالم الشرقي؛ غزوا الشرق الأدنى كله وتعمقوا حتى وصلوا إلى الشرق البعيد، ونشروا علومهم وفلسفتهم وحضارتهم، واستطاعوا أن يطبعوا الإنسانية القديمة بطابعهم الخاص، وهو العصر الذي تلا فتح الإسكندر، والذي استقرت فيه ممالك يونانية في الشرق، وعرفت فيه الفلسفة اليونانية بين الشرقيين، بل شارك الشرقيون في هذه الفلسفة أيضًا.

وكانت اللغة اليونانية لغة رسمية في الشرق كله كما كانت لغة رسمية للمدن اليونانية، وكذلك انتشرت اللغة اليونانية في مواطن من إيطاليا على السواحل، وفي مواطن من فرنسا على السواحل، ووصلت إلى إسبانيا واستقرت فيها وقتًا ما، وكانت لغةً رسمية أوقاتًا تقصر وتطول.

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن اللغة اليونانية لم تستطع بحالٍ من الأحوال أن تصبح لغةً شعبية لهذه البلاد التي خضعت لسلطانها.

فالمصريون اتخذوا اللغة اليونانية لغتهم الرسمية للسياسة والإدارة نحو عشرة قرون، ولكنهم لم يتخذوها — في يومٍ من الأيام — لغة شعبية، وإنما كانوا — في تلك الأوقات وتلك القرون الطوال — يتكلمون لغتهم الخاصة. استعاروا من اليونان كتابتهم، ولكنهم ظلوا يتكلمون ويتحدثون بلغتهم الخاصة.

والأمم السامية المختلفة التي كانت منتشرة في فلسطين وسوريا ولبنان والجزيرة وفي كثيرٍ من أجزاء العراق، كل هذه الأمم خضعت لسلطان اليونان، وكانت اللغة اليونانية لغة الإدارة والسياسة والقانون، ولكنها — على ذلك — لم تستطع أن تعرب عن ذات الشعب، ولا أن تكون لغة الحديث والتخاطب بين أفراد هؤلاء الشعوب.

وقولوا مثل هذا في اللغة اللاتينية التي انتشرت أيضًا؛ فاللغة اللاتينية انتشرت في الشرق كذلك، ولكنها لم تستطع أن تغلب اللغة اليونانية — حتى على لغة الدواوين ولغة الإدارة ولغة السياسة — في الشرق؛ فكانت اليونانية لغة الإدارة والدواوين والسياسة أيام الحكم الروماني في الشرق، وهي اللغة التي استطاعت أن تثبت للَّاتينية، مع أن اللاتينية هي لغة الحكام.

واستطاعت اللاتينية أن تسيطر على غرب أوروبا، ولكنها احتاجت إلى قرونٍ طوال، وإلى تطورات خطيرة جدًّا قبل أن تصبح لغةً شعبية في تلك البلاد.

وأكبر الظن أنها لم تصل إلى هذه المرتبة — في يومٍ من الأيام — وإنما ظلت لغة الخاصة الذين يكتبون في العلم وفي الفلسفة وفي الدين. واستطاعت اللاتينية عندما غزاها البرابرة، وأضافوا إليها لغاتهم أن تنشأ عنها هذه اللغات الأوروبية التي نعرفها الآن.

ولا كذلك اللغة العربية؛ فإنها لم تكد تخرج من الجزيرة أثناء الفتوح الإسلامية، حتى اتصلت بنفوس الأمم المغلوبة في وقتٍ ليس بالطويل.

ومع أننا نعلم — مثلًا — أن المصريين احتاجوا لبعض الوقت لتصبح اللغة العربية هي لغتهم، فإننا نستطيع أن نقطع بأن القرن الثاني لم ينتصف حتى كان المصريون — جميعًا — يتحدثون اللغة العربية، ويتخذونها أداة في الاتصال بالحكومات والدواوين، وفيما بين أنفسهم، إلا في مواطنَ ضيقة كانت أشبه بالجزر التي يأخذها الماء من جميع أقطارها بين هذه البلاد التي كانت تتكلم العربية، وكذلك استطاعت اللغة العربية في أقل من قرنين أن تغزوا هذا العالم القديم.

ولكنها غزته غزوًا آخر، لم تغزه هذا الغزو الرسمي الذي نعرفه عندما يفرض المتغلبون لغتهم على السياسة والإدارة والثقافة، ولكنها غزتهم في عقر دُورهم، حتى أصبح الناس يتحدثون بها فيما بينهم؛ يتحدث بها الأب إلى أبنائه وبناته، ويتحدث بها الأبناء إلى الآباء؛ أي إنها أصبحت لغة الأسرة نفسها.

هذا الغزو الذي أتيح للغة العربية لم يُتَحْ للغةٍ قديمة أخرى في وقت من الأوقات مطلقًا.

وما أعرف أنه أتيح ذلك للغةٍ حديثة من اللغات الأوروبية — على أقل تقدير — في هذا العالم الشرقي الذي نعيش فيه.

فالأمم الحديثة الأوروبية قد قهرت الشرق الأدنى وتسلطت عليه وقتًا طويلًا أو قصيرًا، وفرضت لغاتها على الإدارة والسياسة والثقافة أوقاتًا تقصر أو تطول، ولكن هذه اللغات لم تستطع — بحالٍ من الأحوال — أن تصل إلى نفوس الشعوب، وأن تصبح لغة شعبية كما أصبحت اللغة العربية لغة شعبية. ونحن نعرف أن الاستعمار الفرنسي الذي استقر في موطنٍ من مواطن أفريقية الشمالية منذ قرن، حاول — وجدَّ في المحاولة كل الجد — أن يفرض اللغة الفرنسية على أهالي هذا الموطن — وهو الجزائر — واستطاع أن يجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم ولغة الثقافة كما كانت بالطبع لغة السياسة والإدارة،

ولكنه لم يستطع — إلى الآن — وما أرى أنه سيستطيع في يومٍ من الأيام أن يجعلها لغة الناس.

فاللغة العربية إذن فيها هذه القوة التي لم تُعرف في لغةٍ قديمة ولم تُعرف في لغةٍ حديثة، وفيها من جهةٍ أخرى المقاومة العنيفة؛ هذه المقاومة التي تحميها من طغيان اللغات.

وأنتم تعرفون أن الترك قد تسلطوا على مصر قرونًا طوالًا، ولكن لغتهم لم تستطع قط أن تكون لغة المصريين — حين يتحدث بعضهم إلى بعض — وظلت اللغة العربية في هذه البلاد مسيطرة إلى الآن منتصرة في هذه المقاومة، ظلت لغة الثقافة وظلت لغة الشعب يتحدث بها الناس، ولا يجدون في ذلك مشقة ولا عسرًا.

فهذه اللغة التي استطاعت أن تنتصر هذه الانتصارات المؤزرة، والتي استطاعت أن تسيغ ما أساغت من ثقافات اليونان والفرس والهند، والتي أخذت تسيغ — في يسرٍ أعظم جدًّا مما يظن المتحرجون — ما تحمله الحضارات الأوروبية والأمريكية من ثقافةٍ وعلم، هذه اللغة التي تجد الآن خصومًا من أبنائها، يعرضون عنها ويحملون الناس على أن يعرضوا عنها.

وإذا كان المجمع قد أنشئ ليحافظ على هذه اللغة — ما وجد إلى ذلك سبيلًا — وإذا كان قد أنشئ ليمكن لهذه اللغة من أن تتطور مع الزمن، ومن أن تلائم العصور المختلفة التي تعيش فيها؛ فأول ما يجب على المجمع هو أن يتحدث إلى المتكلمين باللغة العربية ليبين لهم الوسائل التي ينبغي أن يتخذوها لتبقى هذه اللغة قوية — كما كانت قوية دائمًا — مرنة كما كانت مرنة دائمًا، قادرة على أن تغالب وتغلب، وتقاوم وتنتصر، وأن تظل هي لغة الحضارة في المستقبل كما كانت لغة الحضارة في هذا الجزء من الأرض في الماضي القريب والبعيد أيضًا.

وواضح جدًّا أن المجمع لا يستطيع أن يكتفي بما يصنعه أعضاؤه حين يلقى بعضهم بعضًا في مجلسهم أو في مؤتمرهم؛ فالمجمعيون مؤمنون جميعًا باللغة العربية ومؤمنون بقوتها ومرونتها وقدرتها على المقاومة، ولكن إيمان المجمعيين وحدهم لا يكفي مطلقًا؛ فهو يكفيهم هم ولكنه لا يكفي المهمة التي من أجلها أصبحوا أعضاء في هذا المجمع.

فليس لهم بد من أن يلقوا الناس، وأن يتحدثوا إليهم ليقنعوهم بقدرة اللغة على إساغة الحضارة الحديثة وبقدرتها على المقاومة والمرونة والتطور، كما أساغت الحضارة القديمة أيضًا.

وليس معنى هذا أني مطمئنٌّ إلى أن هذه اللغة لا تجد أمامها من المشكلات والمصاعب ما هو خليق أن يعرض بعض الهمم لشيءٍ من الفتور، أو لشيءٍ من الإشفاق؛ فالمصاعب التي تلقاها اللغة خطيرة جدًّا ولا تخلو من عسر، ولكن هذا العسر لا يأتي منها هي، وإنما يأتي من أصحابها.

لغة حية مرنة قادرة على التطور يتكلمها قومٌ لا يزالون في حاجةٍ إلى الحياة، ولا يزالون في حاجةٍ إلى المرونة، ولا يزالون في حاجةٍ إلى التطور. فإذا لم يكن بد من أن نصلح اللغة لتلائم العصر الحديث والحضارة الحديثة، فأول ما ينبغي هو أن نصلح الذين يتكلمون هذه اللغة؛ فالذين يتكلمون بهذه اللغة هم الذين يستطيعون أن يبعثوا فيها الحياة — إن كانوا أحياء — وواضح أن فاقد الشيء لا يعطيه كما يقال.

وإذا كانت تنقصهم المرونة فلا عيب عليها ألا تكون مرنة؛ لأن اللغة العربية ليست شيئًا يعيش في السماء أو يعيش في الجو، بل هي شيء يعيش في النفوس والقلوب وتنطق به الألسن، شيءٌ ملازم للأحياء يؤدي ما في نفوسهم.

فإذا كان عندنا شيءٌ نريد أن نؤديه بهذه اللغة ثم قصرت اللغة عن تأديته، هنا نستطيع أن نعدل عن هذه اللغة، وأن نبحث عن لغة أخرى؛ لأنها لم تستطع أن تؤدي لنا المعاني التي نريدها.

والشيء الذي لا شك فيه أن ضعف اللغة العربية لم يثبت إلى الآن، وإنما الذي ثبت هو ضعف المتكلمين بها؛ لأن المتكلمين بها جاهلون، لم يكن عندهم علم فلم يكن فيها علم، ولم تكن عندهم حياة ففقدت اللغة الحياة، وجمدت اللغة لأن المتكلمين بها أصابهم الجمود، فجمدت اللغة بجمود أصحابها.

يومَ يمرن المتكلمون باللغة العربية، ويوم يشعرون بالحياة الكاملة، ويوم تمتلئ بها قلوبهم ونفوسهم وعقولهم؛ ستجاريهم اللغة في الحياة والعلم، ما في ذلك شك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا خرسًا — لا ينطقون — وهي ميسرة أمامهم. فإذا لم يؤدوا بها عن ذات نفوسهم، فهم الذين يقع عليهم الذنب.

من المشكلات الخطيرة التي تحول بين اللغة العربية وبين أن تؤدي ما يجب عليها أن تؤديه من الإعراب عن ذات النفوس في صراحة، مشكلة الكتابة قبل كل شيء.

ولا بد أن يلتفت إلى أن اللغة العربية عندما استحدثت الكتابة كانت شيئًا ضيقًا، يوشك أن يكون محتكرًا لقلة قليلة، قاصرًا على الخاصة الذين يقبلون على التعليم من الذين يصطنعون الكتابة في مصالحهم الخاصة، وكانت جمهرة الشعب لا تحتاج — أو

لا تشعر بالحاجة — إلى أن تتعلم وتتثقف، أو لا يتاح لها حتى هذا الشعور، فكانت الكتابة شيئًا محتكرًا لهذه الطائفة القليلة من المثقفين.

وكان من الممكن للكتابة العربية — على ما فيها من عسرٍ ومشقة — أن يحتملها هؤلاء المثقفون؛ لأنهم قلة، على أن ينفقوا الوقت في التعلم حتى يستطيعوا أن يتقنوا هذه الكتابة كما ينبغي.

ولكن الدنيا قد تغيرت، وأصبحت الحياة الحديثة تفرض على الشعب كله أن يكون قارئًا كاتبًا، ولا بد للشعب كله أن يأخذ بحظه من الثقافة — قل أو كثر — سواء منه الرجال والنساء والبنون والبنات.

فمعنى هذا أن الكتابة التي كانت محتكرة قد أصبحت الآن شعبية شائعة بين الشعب كله، ومعنى هذا أنها أصبحت ديمقراطية بعد أن كانت أرستقراطية، ومعنى هذا أن الديمقراطية تدفع إلى السهولة وتأبى التعسر وإيثار المشقة؛ لأن الشعوب لا تثبت للمشقات، وعامة الشعب لا تفرغ وقتها للتعليم؛ فهي تعمل وتكد لتعيش، وظروف الحياة لا تتيح لهم من الفراغ ما كان يتاح للقلة التي كانت تفرغ للكتابة والقراءة والثقافة والتعليم.

فأول ما يجب على الدولة عندما تفرض تعليم الشعب هو أن تعالج مشكلة الكتابة، وإلا فهي تطلب المحال، وإذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع، فإذا طلبت المستحيل فلا حرج على الناس إذا لم يطيعوك.

وكتابتنا شاقة ما في ذلك شك، ولست في حاجةٍ إلى أن أبين لكم مشقتها، وإنما يكفي أنكم لا تستطيعون أن تقرءوا شيئًا قراءة صحيحة، وأنتم المثقفون، إلا إذا سبقت عقولكم إلى فهمه. وإذا كان هذا لا يتاح للمثقفين، فينبغي ألا تطالب به الجماهير من عامة الشعب، فيجب أن تكون القراءة وسيلة للفهم إلا أن يكون الفهم وسيلة للقراءة.

ومعنى ذلك أننا إذا أردنا أن نعلم الشعب، فيجب أن نصلح له الكتابة العربية، بحيث يستطيع القراءة دون أن يكد نفسه أو يكلفها ما لا تطيق ليستطيع أن يفرغ للفهم والتأمل، وأن يتعمق ما يقرأ، وأن يمتزج هذا الذي يقرؤه بقلبه ونفسه، وأن يدفعه إلى الشعور ثم إلى العمل ثم إلى الإنتاج.

كل هذا يفرض علينا — إذا كنا جادين في تعليم الشعب — أن نيسر وسائل التعليم له، وأول وسيلة من وسائل التعليم هي الكتابة؛ فليس بد من تيسيرها بحيث يستطيع الشعب كله أن يقرأ قراءة صحيحة، وأن يفهم بعد ذلك ويتأمل.

ولا تسألوني أنا عن تيسير الكتابة كيف يكون.

ولكن لكم الحق — كل الحق — في أن تسألوا المجمع والحكومة أيضًا والحكومات العربية، والمجامع العربية في محاولة إصلاح الكتابة، فهي التي ينبغي أن تُسأل عن هذا.

وأشهد لقد جد مجمعنا في إصلاح الكتابة من سنين، وما أرى أنه قصر إذا لم يكن قد وفق إلى هذا التيسير، ولكنه في حاجةٍ إلى العون الذي يتيح له أن يمضي في التيسير بحيث يستطيع أن يجعل هذا التعليم مفيدًا. وبهذا نستطيع أن نقول إننا — نحن المصريين — جادون في التعليم الشعبي، وأن نقول إننا موفقون في هذا الجد، وأن نقول — نحن لأنفسنا — إننا نعلم الشعب فيتعلم، وندفعه إلى الثقافة فيطيع، وندفعه إلى المعرفة فيستجيب، ولن يكون هذا قبل أن نيسر مشكلة الكتابة.

أما المشكلة الأخرى — وهي ليست أقل من هذه المشكلة خطرًا — فهي مشكلة النحو، والفرق بين هاتين المشكلتين أن مشكلة الكتابة مشكلة محزنة حقًّا؛ لأننا نطالب الشعب بما لا ينبغي أن نطالبه به، ونفرض عليه أشياء صعبة لا ينبغي أن نفرضها عليه، ولكن قصة النحو هذه قصة أخرى؛ فهي لا تخلو من ظرف، وهي لا تخلو من فكاهة أيضًا.

وينبغي أن أعتذر للذين يخاصمون اللغة العربية فهم معذورون؛ لأن النحو يربكهم ويرهقهم، فمشكلة النحو موجودة الآن ومنذ زمن، بل من أقدم العصور، وقد قال أحدهم:

ماذا لقيت من المستعربين ومن ... تأسيس نحوهمُ هذا الذي ابتدعوا
إن قلت قافية فيما يكون له ... معنى يخالف ما قاسوا وما صنعوا
قالوا: لحنت وهذا الحرف منخفض ... وذاك نصبٌ، وهذا ليس يرتفع
وحرشوا بين عبد الله واجتهدوا ... وبين زيد فطال الضرب والوجع!

فالقدامى أنفسهم كانوا يشقون بالنحاة، وكانوا يشقون بهذا القياس الذي اتبعه النحويون، وفرضوا على العقول القديمة مشكلاته وألغازه، وكل هذه المشقات العسيرة التي طالما يشقى بها أبناؤنا في المدارس والمعاهد والجامعات.

وماذا تريدون إلى نحو يفرض على شاب لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره في هذا القرن العشرين، بين كل هذه المظاهر التي يعيش فيها، والتي تدل على أن العالم القديم قد أصبح تاريخًا، وعلى أن الدنيا قد تغيرت تغيرًا أقل ما يوصف به أنه تغير لا

عهد للناس به من قبل في أي عصرٍ من العصور؟ ماذا تريدون إلى نحو يفرض على هذا التلميذ البائس حين يسأله أستاذه أن يعرب قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾: فيقول: «أحد» مبتدأ، فيعنف به أستاذه أشد العنف؛ لأن «إنْ» لا يمكن أن توجد إلا مع الفعل، وهي — مع الأسف — قد وجدت مع الاسم، وكأن هذا هو ذنب التلميذ!

وإذن فينبغي أن يعرب التلميذ «أحد» فاعلًا لفعل محذوف. ما ذنب التلميذ والأستاذ يظن أنه يعرف أو يفرض عليه أن يعرف ذلك؟

وأذكر أنني ناقشت شيخًا من الشيوخ وقلت له: كيف تعرب «أحد» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾، فقال: «أحد» فاعل لفعل مقدر هو استجارك. فقلت: قد كذبت على الله — عزَّ وجلَّ — وأضفت إلى كتابه ما ليس فيه؛ فالله لم ينزل إلا «استجارك» مرة واحدة، وأنت تقول إنه قال: وإن استجارك أحدٌ من المشركين استجارك، فمن أين جاءت الثانية؟

وقد يسأل الأستاذ تلميذه كيف يعرب زيدًا رأيته، فإذا قال التلميذ إن زيدًا مفعول به وسكت، لامه الأستاذ وربما شهر عليه العصا، وما أكثر ما تشهر العصا حتى في هذه الأيام؛ لأنه لم يقدِّر فعلًا آخر ينصب زيدًا، فقد تبين أن يكون «زيد» منصوبًا بفعل مقدر تقديره رأيت زيدًا رأيته؛ لأن رأيته الثانية قد اتصل بها ضمير، وهذا الضمير لا ينبغي أن يعود إلا على متقدم عنه في اللفظ والرتبة، وإذا كان زيد هو نفس الضمير وهو مفعول لفعل غير الذي يعمل في الضمير؛ لذلك ينبغي أن يكون زيد مفعولًا لفعل محذوف تقديره «رأيت».

ويسأله الأستاذ أن يعرب: «نحن المصريين نجتهد في التعليم.»

فيقول: نحن مبتدأ والمصريين منصوب على الاختصاص. ومن العسير جدًّا على التلميذ أن يقول إنه مفعول لفعل محذوف تقديره نحن أخص المصريين. ومثل يقال في «إياك والنار»؛ أي أحذرك واحذر النار، ومن حيث إن الكاف ضمير متصل لا يستطيع أن يستقل بالكلام، أتينا بالضمير المنفصل «إياك»، وذلك بعد حذف الفعل، إلى آخر هذا الكلام الفارغ الذي ضاق به القدامى أنفسهم وضاق به فحول الشعراء أيضًا؛ فقد كان شاعر فحل — وكلكم يعرفه — وهو «الفرزدق» لا يحفل بالنحاة، بل كان يتكلم كما كان العرب يتكلمون؛ يندفع في الشعر مرتجلًا فيخطئ أحيانًا، ويدفعه أحيانًا وزن الشعر أو قافيته إلى أن يخالف عما ألف الناس الإعراب فيه. وكان هناك نحوي يتتبع «الفرزدق»، وينبهه إلى أغلاطه في النحو، فاضطر «الفرزدق» إلى هجوه وقال:

ولو أنَّ «عبد الله» مولى هجوته ولكن «عبد الله» مولى مواليا

فسمع «عبد الله» هذا البيت، فقال: «وأخطأت حتى في هذا البيت، وكان يجب أن تقول: مولى موالٍ!» فالنحو إذن كان محنة للقدماء، وهو أجدر أن يكون محنة للمعاصرين.

وواضح جدًّا أننا لا نستطيع أن نطلب إلى أبناء القرن العشرين أن يتعلموا لغتهم على هذا النحو الذي كان الطلاب القدماء يجدون فيه مشقة منذ أكثر من ألف عام، وأن الشباب حينما يذهبون إلى المدارس يتعلمون اللغة العربية، ويتعلمون اللغة الأجنبية: الإنجليزية أو الفرنسية أو اللغتين معًا. والشيء المحقق — الذي لا جدال فيه — هو أن الشاب عندما يخرج من المدرسة الثانوية يستطيع أن يتحدث اللغة الإنجليزية أو الفرنسية حديثًا مستقيمًا، بينما يعجز كل العجز أن يتكلم العربية حديثًا عربيًّا مستقيمًا؛ لسببٍ بسيط وهو أنه لم يفهم من دروسه في النحو، ولا من دروسه حول اللغة العربية: صرفها ومعانيها وبيانها وبديعها؛ شيئًا.

وكما قلت منذ حين: إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع.

فلا تطلب إلى أهل القرن العشرين أن تكون عقولهم كعقول أهل القرن التاسع أو العاشر للمسيح، ومعنى هذا أن النحو لا بد أن يتغير.

والمطالبة بتغيير النحو قديمة كالمطالبة بإصلاح الكتابة العربية، ولكن الكارثة الكبرى تأتي من أن الذين يتعلمون اللغة العربية ويعلمونها يوشكون أن يحتكروها، هؤلاء السادة المحتكرون جمدوا فجمدت معهم اللغة وجمد معهم النحو، ولغة قديمة كاللغة اليونانية تعلم اليوم في المدارس الأوروبية ونحوها قديم لا يلائم العصر الحديث، فيوضع لها نحو حديث يلائم عقل ابن القرن العشرين، ويلائم طبيعته ومزاجه وأطوار حياته دون أن يؤثر ذلك — قليلًا أو كثيرًا — في نفس اللغة اليونانية أو في نفس اللغة اللاتينية.

ولكن محتكري النحو، أو محتكري اللغة العربية قرروا — فيما بينهم ذات يوم — أن إصلاح النحو إفساد للقرآن، وأن من مس النحو بسوء فقد أساء إلى القرآن.

وأعترف بأني حاولت أن أفهم هذا فلم أجد إلى فهمه سبيلًا.

فعندما أُنزل القرآن لم يكن النحو العربي موجودًا، وحينما تُلي القرآن طوال النصف الأول من القرن الأول لم يكن النحو موجودًا، وإنما وجد النحو بعد ذلك، فلم يكن ملازمًا للقرآن؛ وُجد القرآن دون أن يُوجد النحو.

وأغرب من ذلك أن النحاة بعد أن وضعوا نحوهم، وخاصة مدرسة البصرة — التي يحبها زميلنا الأستاذ إبراهيم مصطفى — قرروا أن يخضعوا نصوص اللغة العربية له؛ لأنهم وضعوا قواعد وينبغي أن تخضع العربية كلها لهذه القواعد التي وضعوها. فإذا خرجت كلمة أو لفظ أو إعراب في بيتٍ أو نص من النصوص عن هذه القواعد، أو إذا كان النص غريبًا، فهو شاذ لا ينبغي لأحد أن يذهب هذا المذهب الذي ذهبه صاحب هذا البيت أو النص الشاذ.

وإذا كان النص غريبًا اختصوه بالتأويل، وأجهدوا الناس معهم ليظهروا أنه منطبق على ما وضعوه من قواعد.

وأذكر أن صديقًا زارني منذ أيام وسألني كيف تعرب الآية: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ فإن الحرف «إن» يجزم فعلين، وكان حقه أن يقال: لئن أخرجوا لا يخرجوا، مع أن الآية مستقيمة رضي النحويون أم سخطوا، ولكن المهم عندهم هو صدق قاعدتهم، فقدر النحويون حذف أحد الجوابين اكتفاء بجواب السابق منهما وهو القسم.

ولكني مطمئنٌّ إلى أن الذين سمعوا القرآن من سيدنا محمد ﷺ كانوا يفهمونه كما يتلى عليهم، ولا يحتاجون إلى تأويلٍ وحذف، وما أكثر ما يتكلف النحويون ليلائموا بين نحوهم وبين القرآن أو النصوص.

فإذا كان هذا كله جائزًا، ومستحبًّا أحيانًا، وعلم النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسي؛ لأني أجد لذة في قراءة الكتب النحوية المعقدة — على ما فيها من هذه الفلسفة والتعقيد — مثلما أجد عند قراءتي لشعر رائع لجرير أو لبشار، أو لمن شئتم من الشعراء القدماء والمحدثين.

إذا كان هذا النحو مستحبًّا إلى الأخصائيين، وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات، فمن الحمق كل الحمق — ولا أتجاوز هذه الكلمة — أن نفرض هذا على الشباب في هذا القرن وهم لا يحصون بعشرات الألوف، بل بمئات الألوف. من الخطأ ومن الحمق أن نأخذ عقول الشباب بتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتوائه، هذا الذي لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث.

ليس بد إذن من تيسير النحو، أو إن شئتم ليس بد من إنشاء نحو جديد يضبط قواعد اللغة العربية دون أن يمس جوهرها — من قريبٍ أو من بعيد — ولكنه يتيح للشباب أن يتعلم هذه اللغة في يسرٍ وفي غير عنف.

وإذا يسرت الكتابة، وإذا يسر النحو، وإذا أحسن المعلمون تعليم الأدب واللغة من نواحٍ مختلفة: من ناحية ملاءمة التعليم لعقول الأطفال من الناحية البيداكوجية، ولعقول الشباب من ناحية حسن الاختيار، بحيث يكون التعليم ملائمًا للذوق الحديث أيضًا، إذا أحسن هذا كله — وكما تعلمون قد فرض التعليم على الشعب كله — فلست أشك بحالٍ من الأحوال في أن يومًا من الأيام غير بعيد، لا أحب أن أحدده — كما تعود الناس أن يحددوا كل شيء في هذه الأيام — سيأتي وقد عادت الحياة القوية إلى هذه اللغة وأصبحت ليست لغة المثقفين فحسب، ولا لغة الأدب فحسب، ولكنها لغة المثقفين ولغة الأدب التي يفهمها الشعب كله.

هذا خير أم ما يعرض الآن ويدعى إليه هو الخير؛ وهو أن نتكلم اللغة العامية ونكتب بها، ونعرض عن هذه اللغة، ونتركها للذين يحبونها ويريدون أن يفرغوا لها؟

أما أنا فمطمئن إلى أن هذه الدعوة لن تلقى من يستجيب لها، وأصحابها أنفسهم لا يستجيبون لها — فيما بينهم وبين أنفسهم — وإنما هو قوم حيل بينهم وبين أن يتعلموا اللغة تعليمًا صحيحًا، وحيل بينهم وبين تذوق هذه اللغة؛ لأن الذين علموهم اللغة لم يحسنوا تعليمهم، ولأن النحو لا يلائم عقولهم؛ ولأن ما ألقي إليهم من دروس الأدب ليس هو الأدب الذي يلائم الذوق الحديث المعاصر؛ فهم معذورون إذن.

ولكن الشيء الذي أحب أن أحذر منه المصريين خاصة، والعرب عامة، هو أن مثل هذه الدعوة إن استجيب لها في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية، فسيأتي يوم — وما أرى أنه سيأتي — تصبح فيه الصلة بين البلاد العربية كالصلة بين البلاد الفرنسية والإيطالية والإسبانية؛ يحتاج الفرنسيون إلى أن يترجموا إلى لغتهم هذا أو ذاك، ويحتاج الإسبانيون إلى أن يترجموا إلى لغتهم هذا أو ذاك، وسنحتاج — نحن — إلى أن نترجم عن السوريين والعراقيين، وإلى أن يترجم السوريون والعراقيون عنا.

وما أظن أن أحدًا يفكر تفكيرًا جديًّا في مثل هذا.

وما أظن أن محبًّا للعرب وللحياة العربية ولتاريخها، ومحبًّا للقرآن الذي توارثته القرون، ومحبًّا لهذا التراث الضخم؛ يستطيع أن تطيب نفسه إلى هذا السخف الذي يدعى إليه.

وليس بد — إذن — قبل أن أختم هذا الحديث الذي أسرف في الطول، وأصبح كعرقوب تلك المرأة التي قال فيها الشاعر:

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أظن أنكم جميعًا توافقونني وتوافقون المجمع معي — فأنا أتحدث بلسان المجمع وهذه إحدى جلساته، وكما روي: «المؤمنون يسعى بذمتهم أدناهم» — أظنكم توافقون جميعًا على أنه إذا كان هناك شيء يجب أن نتعاون عليه تعاونًا صادقًا مخلصًا، يراد به ترقية العلم وترقية الأدب، وتحقيق الوحدة العربية تحقيقًا جديًّا لا ساخرًا؛ فهو أن تتعاون الحكومة والمجمع والمثقفون والهيئات المختلفة على تحقيق تيسير الكتابة العربية والنحو العربي؛ لتكون اللغة العربية قريبة التناول، لغة يمكن أن يتعلمها الشباب ويعلمها المعلمون.

الفصل العاشر

فن من الشعر يتطور بأعين الناس[1]

لن أجمع عليكم أيها السادة بين الثقل والطول، فالحديث الذي أريد أن أسوقه إليكم الآن لا يخلو من ثقلٍ ثقيل؛ لأنه عن فن من أغرب فنون الشعر العربي؛ وهو فن الرجز.

وهذا الفن كما ذكر في برنامج هذه الجلسة قد تطور بأعين التاريخ؛ أريد أن التاريخ المعروف الذي نستطيع أن نتتبعه وأن نستقصيه، قد رأى تطور هذا الفن كيف تقدم وكيف ارتقى حتى بلغ أوجه، وكيف تأخر شيئًا فشيئًا حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن، على حين أن غيره من أنواع الشعر قد فاتتنا أوليته فلم نعرف كيف نشأ، وإنما صادفناه في أواخر العصر الجاهلي وأول العصر الإسلامي كاملًا مستتمًّا.

والذي نعرفه عن الرجز أنه في العصر الجاهلي كان فنًّا من فنون الشعر الشعبي، لا يحفل له الشعراء، ولا يقفون عنده ولا يلتفتون إليه، وإنما كان شيئًا أشبه بالزجل، أو بهذه المواويل التي يتغنى بها العمال حين يعملون ويتغنى بها حملة الأثقال والدافعون لما يشق دفعه. وقلما كان الجاهليون يصطنعون الرجز حين كانوا يقدمون على الحرب، وإنما كانوا يصطنعون نوعًا آخر من الشعر هو الهزج.

[1] بحث ألقاه الدكتور طه حسين في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في أول عام ١٩٤٧.

وربما كان من الأمثلة التي تصور الرجز في العمل والعمال وحمل الأثقال واحتمال الجهود، هذه القطعة الصغيرة التي كان المسلمون ينشدونها وهم يحتفرون الخندق في غزوة الأحزاب، والتي يروي ابن سعد وغيره من أصحاب السيرة أن النبي — عليه الصلاة والسلام — كان ينشدها وهو يحمل الأحجار، وقد رفع ثوبه حتى بان بياض بطنه:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأَنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

ويختلف العلماء القدماء في قيمة الرجز؛ فيرى بعضهم أنه ليس شعرًا، ويستدلون على ذلك بأن النبي أنشده، وفي القرآن: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾.

فإنشاد النبي للرجز دليل عندهم على أن الرجز ليس شعرًا، ويذكرون أن النبي — عليه الصلاة والسلام — أنشد مرة أخرى:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وغيرهم يرى أن الرجز فن من فنون الشعر، والنبي — عليه الصلاة والسلام — لم يعلَّم الشعر، ومعنى لم يعلم الشعر أنه لم يعلم قول الشعر وإنشاءه، فأما أن ينشد البيت أو البيتين، فليس بعد هذا تعليمًا ولا قولًا للشعر.

مهما يكن من شيء فقد كان الشعراء في العصر القديم يحتقرون الرجز ويزدرونه، وظل الشعراء كذلك في العصر الإسلامي يحتقرونه ويزدرونه، ولكنَّ بين النوعين من الاحتقار فرقًا.

فالشعراء الجاهليون يزردون الرجز؛ لأنه لم يكن من الفنون التي ارتقت، بحيث تصور الفن العالي كما نزدري نحن الآن بعض الشعر الشعبي. والإسلاميون يزدرونه؛ لأنهم كانوا يغارون من الرجاز ويرونهم منافسين لهم، زاحموهم فزحموهم في كثيرٍ من الأحيان.

وقد عني النقاد بالرجز عناية خاصة، فإذا كان الشعر العربي متن اللغة فيمكن أن يقال إن الرجز كنز اللغة العربية، وهم من أجل ذلك عنوا بالرجز ليسجلوا اللغة العربية كما جاءت فيه، وظلوا يعرضون عنه ويزدرونه؛ لأن وزنه أيسر من أوزان البحور الأخرى؛ ولذلك قالوا: إن الرجز حمار الشعراء.

وكان أبو العلاء في رسالة الغفران يزدري الرجز، ويحمل ابن القارح على أن يزدري الرجز أيضًا عندما مر بجنة الرجاز فوجدها ضئيلة متواضعة ليست كجنة الشعراء. وكانت بينه وبين رؤبة خصومة في قيمة الرجز، فابن القارح يغض منه ورؤبة يرفع من شأنه؛ لأن اللغويين يستشهدون به، وليس ذلك عند ابن القارح بالشيء ذي الخطر.

الذي يعنيني من حديث الرجز، ويدفعني إلى أن أتحدث إليكم عنه، هو أن هذا البحر الذي لم يكد ينمو إلا في أول العصر الإسلامي، قد أتاح للشعر العربي فنونًا من القول لم تُتَحْ لغيره من بحور الشعر.

وكلكم يعلم بالطبع أن الرجز إنما طول في عصر النبوة أو بعبارةٍ أدق في عصر الخلفاء الراشدين، وربما كان أول من طول الرجز هو الأغلب العجلي، ثم يمضي الأمر على ذلك حتى يظهر الرجاز الذين طولوا إلى حيث لم يستطع الشعراء أن يبلغوا من الإطالة.

يقال إن الرجز فن سهل؛ لأن وزنه بسيط: مستفعلن مستفعلن مستفعلن، ولكنكم تلاحظون أن الرجز إذا سهل وزنه شقت قافيته؛ فالشاعر من شعراء القصيد يلتزم القافية في القصيدة، بحيث يكون لكل بيت قافية على حين يلتزم الراجز قافية لكل شطر، فإذا قال طرفة فقصيدة تبلغ مائة بيت فلها مائة قافية، وإذا قال رؤبة أرجوزة تعدل هذه القصيدة في الطول فلها مائتا قافية، ويكفي أن تلاحظوا أن أرجوزة رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق

قد زادت على ستين ومائة قافية، فبلغت تسعًا وتسعين ومائة، وللعجاج أراجيز زادت على المائتين.

هذا الفن الذي كان في أول أمره مهملًا يسيرًا، لا يصور من حياة العرب إلا أيسر نواحيها الشعبية، قد ذهب به أصحابه في صدر الإسلام مذهب الشعراء، وكان أول ذلك عنايتهم بالوصف الذي هو أهم ما كان يعنى به أصحاب القصيد.

فهناك رجاز كادوا يقصرون فنَّهم على وصف الطبيعة وما فيها من الصحراء والجبال والماء والنبات والحيوان والسماء والنجوم، وقد طولوا في ذلك تطويلًا لا عهد لأصحاب القصيد به، بحيث نستطيع إذا التمسنا شعر الطبيعة الخالص أن نجده عند الرجاز أولًا وأصحاب القصيد بعد ذلك.

وقد ذكرت لكم أرجوزة رؤبة المشهورة — وقاتم الأعماق خاوي المخترق — وحسبي أن ألخص لكم هذه الأرجوزة في كلمات لتعرفوا أن رؤبة لم يقصد فيها إلا الطبيعة وحدها.

فهو يبدؤها بوصف الطريق البعيد الذي ترامت أطرافه واشتبهت أعلامه، والذي يقطعه بناقته، وناقته هذه يصفها وصفًا موجزًا، ولكنه ينتقل منه إلى تشبيهها بحمار الوحش، فإذا وصل إلى حمار الوحش قص لنا قصته، كما تعود أصحاب القصيد في العصر الجاهلي أن يقصوها في كثيرٍ من التدقيق في وصف الحمار وزوجاته الثماني، ووصف عددهم واستمتاعهن بالربيع والتجائهن للغابة في الشتاء، ووصف الصائد الذي استخفى قوسه ونباله، وما أصاب من هذه الحمر وما فر منها. والظريف أن رؤبة نسي ناقته، وشغل عنها بالحمار وزوجاته، وانتهت أرجوزته دون أن يعود إلى هذه الناقة.

ثم لم يكتف الرجاز بوصف الطبيعة على نحو ما كان الشعراء يصفونها، وإنما جعلوا هذا الوصف أساسًا لفنهم، وهم ينافسون الشعراء كما قلنا، والشعراء في العصر الأموي قد غلوا غلوًّا شديدًا في المدح والهجاء، فلم لا يمدح الرجاز ويهجون كما كان يمدح أصحاب القصيد ويهجون؟ وهم من أجل ذلك مدحوا كالفرزدق وجرير، وهجوا كالفرزدق وجرير أيضًا، ولكنا نلاحظ أنهم في ذلك لم يوفقوا؛ فقد غلبت عليهم الطبيعة، فكانوا في المدح أطفالًا، وربما قصد الراجز إلى مدح أمير فيشغله وصف الطبيعة حتى إذا بلغ ما أراد، ذكر الممدوح في أبياتٍ قليلة ربما لم تتجاوز أربعة أبيات، وقد يبدأ أرجوزته ويطيل في وصف الطبيعة، ثم يخطر له أنه أنشأها للمدح فيعود، ولكنه لا يكاد يمضي في مدحه حتى يعود للطبيعة، وينسى المدح والممدوح ويعود إلى ما كان فيه.

فأما الهجاء فلم يصنع الرجز فيه شيئًا منذ ارتقى، وإنما برع فيه حين كان فنًّا شعبيًّا، وكلكم يذكر أمر هذه المرأة التي رجزت بالفرزدق حتى أخافته، ولم تكن من المشهورات وإنما كانت من عامة الشعب.

وصف الطبيعة الذي عني به الرجاز، وتفوقوا فيه تفوقًا رائعًا حتى جعلوه لونًا من أجمل ألوان الأدب العربي، لم يستطع الشعراء أن يبلغوه؛ تطور في آخر العصر الأموي تطورًا خطيرًا من وجهين: أحدهما أنه أمعن في عنايته بالطبيعة حتى اختص بفن الصيد والطرد، وحتى كان الشعراء في العصر العباسي إذا وصفوا خروج الخلفاء والأمراء والوزراء للصيد لم يصفوا ذلك إلا رجزًا، وكلكم يعرف أرجوزة أبي نواس:

لما تبدى الصبح من حجابه كطلعة الأشمط من جلبابه
وانـعدل الـليـل إلـى مـآبـه كالـحبشي افتر عن أنيابه
هجنا بكلب طالما هجنا به ينتسف المقود من كلابه

إلى آخر الأرجوزة.

وظل الرجز لغة الصيد إلى آخر العصر الذهبي للأدب؛ أي آخر القرن الرابع في شعر المتنبي ومعاصريه. والوجه الثاني لتطور الرجز أنه أصبح لسان فنٍّ جديد من فنون الشعر في الأدب العربي لم يكن معروفًا في العصر الجاهلي والإسلامي، وإنما جاء مع العصر العباسي، عصر العلم والتعليم والمعرفة، وهو الشعر التعليمي الذي لم يقصد به إلا نظم الحقائق العلمية الخالصة، بحيث يسهل حفظها على الطلاب والمتعلمين.

هذا الفن عرف في أول العصر العباسي، ونظمت فيه أثناء هذا العصر فنون الحكمة أولًا كما نراها في ديوان أبي العتاهية، وفي نظم كتاب كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد:

هـذا كـتـاب أدب ومـحـنـة وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فـيـه ضـلالات وفـيـه رشـد وهـو كتاب وضعـته الـهند

وأبان بن عبد الحميد قد تجاوز بهذا الفن نظم الحكمة ونظم القصيدة في أحكام الصوم، وقصيدة أخرى في أحكام الحب والغرام، ومضى هذا الفن من الرجز لسانًا للغة العلم والتعليم منذ أوائل العصر العباسي، وفي جميع الأقطار الإسلامية؛ حتى أصبح لغة المدارس عندما نظمت في العصور الوسطى، وكلنا يحفظ الألفية:

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

وكلنا قد حفظ الجوهرة والخريدة وما إليهما من متون العلم، وأكثرها قد نظم رجزًا فترون أن هذا الفن كان سهلًا من جهة لقصره ويسر وزنه، وهو لذلك قد اصطنع لسانًا للعلم والتعليم من عهد أبي العتاهية إلى الشيخ الدرديري، وكان عسيرًا كل العسر من حيث إن أصحابه قد تشددوا في القافية، وفرضوا على أنفسهم اصطناع الغريب في النظم، وكرهوا أن يصطنعوا الألفاظ اليسيرة كما كان الشعراء من أصحاب القصيدة يفعلون، فأصبح الرجز كنزًا للغة بأدق معاني هذه الكلمة.

ولكن المهم هو أن هؤلاء الرجاز في العصر الأموي عندما اصطنعوا الغريب، وأسرفوا في اصطناعه أتاحوا لأنفسهم ألوانًا من تمرين اللغة وتيسيرها وإخضاعها لحاجاتهم، قلما أتاحها الشعراء لأنفسهم.

فالراجز يصطنع اللفظ ولا يتردد في أن يشتق منه ألوانًا من الاشتقاق لا يحفل بأن تكون هذه الألوان مألوفة أو غير مألوفة؛ لأنه يشعر بأنه صاحب اللغة يصرفها كما يريد، وليس عليه بأس أن يخرج بتصريفها عما ألف الناس من حوله، وعما ألف الشعراء وألف اللغويون الذين كانوا يسمعون منه ويحصون عليه. وإذا رأينا الأصمعي يسجل أغلاطًا لرؤبة والعجاج ولغير رؤبة والعجاج، فالشيء الذي لا شك فيه هو أن رؤبة والعجاج لم يحفلا بما كان يسجل عليهما من الخطأ والغلط، وإنما كانا يقصدان إلى ذلك قصدًا، ويعمدان إليه عمدًا، ويريان أن اللغة ملكهما لا أنهما ملك للغة.

ومن أجل ذلك همَّ بعض العلماء كيونس بن حبيب أن يجادل رؤبة في بعض ألفاظه، فرماه بحجر وقال: علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا.

إذا ذكرت هذا كله فإنما قصدت به إلى شيئين؛ الأول: أن أبعد بكم دقائق قليلة عن الحياة الحاضرة المعاصرة، وعما فيها من المشاغل، حتى مشاغل المجمع اللغوي، وأن أرتفع بكم إلى شيءٍ غير نافع، فقد يقال إن من أخص ما يختص به الأدب والفلسفة، أنهما يرفعان الإنسان عما يقرب نفعه إلى أشياءَ ليس لها من المنفعة إلا مجرد المعرفة، وملاحظة الحقائق التي تغذو العقل والذهن.

فإذا كنت قصدت إلى هذا الفن الغريب، فإنما أردت أن ألفتكم عما تحدث به إليكم زميلنا الدكتور منصور عن أعمال المجمع، ووضع الاصطلاحات وتحقيقها وكل هذه الأعباء الثقال، وعما تحدث به معالي وزير المعارف عن واجبات المجمع من تسجيل وابتكار، إلى آخر كل هذه الحقائق التي نُعنى بها في حياتنا اليومية، ونجد الحاجة إلى أن نسلوها وننساها ولو دقائق قليلة. والثاني: أني لعلي لم أقصد إلى مجرد التسلية، وإنما قصدت بالحديث عن هذا الرجز إلى أن ألفت زملاءنا من أعضاء المجمع إلى أن هؤلاء الرجاز كانوا يملكون اللغة، ويتصرفون فيها ويأبون أن يكونوا عبيدًا لها، ويحرصون على أن تكون خادمة لهم، وأنهم قد استطاعوا أن يستخلصوا من هذه اللغة أشياء لا تكاد تخطر لنا ببال.

فنحن لا نقرأ هذا الرجز، ولو قرأناه لرأينا العجب فيه من تصريف اللغة وتسخيرها لإرادة الراجز.

والرجز مظلوم منذ أبعد العهود حين وصف بأنه حمار الشعراء، ووصف بهذا عن جهلٍ لا عن علمٍ؛ فأكثر الذين عابوه لم يقرءوه، ويكفي أن أذكر لكم ما يروون عن بعض كبار العلماء من أن يونس بن حبيب أثنى على العجاج حين قال:

قد جبر الإله فجبر

فقال: إن هذه القصيدة من أروع الشعر، وإن العجاج أشعر الناس؛ لأنه وضعها مقيدة القافية، ولو أطلقت لانفتحت قوافيها جميعًا. ومع الأسف الشديد ليست هذه الملاحظة صحيحة، فإما أن يكون الحديث الذي يعزى إلى يونس غير صحيح، وإما أن يونس لم يقرأ هذه الأرجوزة وحكم عليها من غير علم.

وأعتقد أن من اشتغل بالعربية ومعاجمها وبتمرينها وتيسيرها وتذليلها لحاجات العصر، لا بد له من أن يقرأ الأراجيز، ويتعمق قراءتها ويجد في هذه القراءة والتعمق غناء أي غناء ومشقة أي مشقة، لا بد له من ذلك ليفقه اللغة حق فقهها، ويعلمها حق علمها، ويسخرها لما يراد أن تسخر له.

ويكفي أن تسمعوا هذه الأبيات القليلة من شعر رؤبة؛ لتعلموا أن الزملاء من أعضاء المجمع، إن استجابوا لما أدعوهم إليه، وهم مستجيبون من غير شك، سيلقون من أمرهم عسرًا ويحملون أنفسهم عناء:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشتبه الأعلام لمَّاع الخفق
يطل وفد الريح من حيث انخرق شأز بمن عوه جدب المنطلق
ناء من التصبيح نائي المغتبق تبدو لنا أعلامه بعد الغرق
في قطع الآل وهبوات الدقق خارجة أعناقها من معتنق
تنشطته كلا مغلاة الوهق مضبورة قرواء هر جاب قنق
مأئرة العضدين مصلاة العنق مسودة الأعطاف من وشم العرق
إذا الدليل استاف أخلاق الطرق كأنها حقباء بلقاء الزلق
أو جادر الليتين مطوي الحنق محملج أدرج أدراج الطلق
لوح منه بعد بدن وحنق من طول تعداء الربيع في الأنق
تلويحك الضامر يطوي للسبق قود قمان مثل أمراس الأبق

إلى آخر الأرجوزة، تسعة وستون ومائة بيت على هذا النحو، فتلاحظون أن أول القصيدة «وقاتم الأعماق ...» يأتي خبره بعد ثمانية أبيات، وهو لا يريد أن يقول أكثر من أن هناك طريقًا مظلمًا بعيد الأرجاء مشتبهة أعلامه، لا سبيل إلى أن يصطبح الإنسان فيه ولا أن يغتبق ولا أن يقيم فيه؛ لأنه مجدب لا أمل فيه لمن يريد الحياة، وهذا الطريق قد غمره الآل واشتد فيه الغبار، بحيث إن الجبال قد ارتدت بالسراب والغبار، وبدت رءوسها منه كما تبدو الأعناق من الثياب، هذا الطريق قطعه بناقة وصفها بهذه الأوصاف الطويلة التي ذكرتها لكم، وأظن أنكم تعفونني من ترجمتها الآن؛ لا لأني لا أستطيع أن أترجمها، فقد أعددت الدرس إعدادًا حسنًا؛ وإنما لأني أريد ألا أشق عليكم، وأريد أن تسمعوا لذي الرمة في النسيب:

ذكرت فاهتاج السقام المضمر وقد يهيج الحاجة التذكر
ميا وشاقتك الرسوم الدثر أريها والمنتأى المدغمر
بحيث ناصى الأجر عين الأنسر فهجن وقرًا واقرًا لا يجبر
أم الدموع سجم أم تصبر وليس ذو عذر كمن لا يعذر
وما إلى مطموسة مستعبر قفر يعفِّيها العجاج الأكدر
قد مر أحوال لها وأشهُر وقد يرى فيها لعين منظر
مجالس وربرب مصور جم القرون آنسات خفر
أتراب مي والوصال أخضر ولم يغير وصلها المغير
وقد عدتني عاديات شجر عنها وهجر والحبيب يهجر

إلى آخر القصيدة، وهي تزيد على مائة بيت، فترون من هذا القليل البسيط الذي سمعتموه إلى أي حد مرن الرجاز اللغة، وإلى أي حد تجاوزوا ما وصل إليه الشعراء من تمرينها، وإلى أي حد نستطيع بل يجب علينا إذا أردنا أن نعرف اللغة العربية حق معرفتها، وأن نتذوق الأدب القديم حق تذوقه، وأن نحيي اللغة ونذللها ونجعلها أداة صالحة لما نحتاج إليه في عصرنا الحديث. إلى أي حد يجب علينا أن نعنى بدرس الرجز، وأن نسير على الأقل سيرة هؤلاء الرجاز، فنتخذ اللغة خادمًا لنا ولا نجعل أنفسنا خدامًا لها.